الولاية في سورة محمد المباركة

مع

بحوث تمهيدية في الكناية القرآنية
ومراتب التأليف في القرآن الكريم

عماد علي الهلالي

النجف الأشرف ١٤٣٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

مقدمة

يروي الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) في كتاب ثواب الأعمال في بعض أسانيده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أنه قال: (من قرأ سورة ﴿**الذين كفروا..**﴾ لم يرتَبْ أبداً، ولم يدخله شك في دينه أبداً، ولم يبتله الله بفقر أبداً، ولا خوف من سلطان أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشك والكفر أبداً حتى يموت، فإذا مات وكّل الله به في قبره ألف ملك يصلّون في قبره ويكون ثواب صلاتهم له ويشيّعونه حتى يوقفونه موقف الأمن عند الله عز وجل ويكون في أمان الله وأمان محمد صلى الله عليه وآله).

وفي مجمع البيان قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة).

هذا الفضل العظيم والثواب الجزيل يستحق منا أن نقف بتأمل على أعتاب هذه السورة المباركة ونتدبر فيها لنقرأها قراءة واعية تكشف لنا عن سر كل ذلك، خصوصاً إذا عرفنا أن نوع الفضل والثواب المذكور في ثواب قراءة أي سورة من القرآن الكريم له ارتباط ومناسبة مع نفس آيات تلك السورة، فما هو ذلك السر في الآيات القرآنية لهذه السورة المباركة التي تجعل القارئ لا يرتاب أبداً في دينه، ولا يدخله الشك والخوف، ويستقيم على الحق حتى يقف موقف الأمن عند الله عز وجل؟.

وما الذي فيها حتى أوجب لقارئها على الله تعالى أن يسقيه من أنهار الجنة؟

مواضيع السورة الشريفة متفرقة أو موحدة؟

من يقرأ هذه السورة الشريفة بصورة سطحية وينظر إلى مجموع آياتها يرى أنها تطرقت إلى مواضيع متعددة؛ فتارة تتحدث الآيات عن وصف الكفار وحربهم، وتارة عن الإنفاق، وتارة عن حوادث ودسائس تقع حول النبي (صلى الله عليه وآله) وتارة عن الذين في قلوبهم مرض.. وقد يتغير سياق الكلام من معنى إلى آخر، ثم يعود إلى المعنى الأول، ثم ينتقل إلى معنى ثالث. وقد تتغير أواخر الآيات فجأة من ﴿ـهُم﴾ كما في ﴿**أَضَلَّ أعمَالهُم.. وَيُصلِحُ بَالَهُم**﴾ إلى ﴿**هَا**﴾ كما في ﴿**أوزَارهَا..**

أقفَالُهَا﴾، وقد لا يجتمع في ذهن القارئ حصيلة واضحة عن مجموع المعاني الكثيرة لآياتها، وسيستغرب ما ذُكر من الثواب العظيم على قراءتها خصوصاً وهو يرى أن معظم معاني آيات هذه السورة الجليلة قد تكرر في غيرها من السور الشريفة.

وقد ينطوي القارئ على الشك والحرج من المشككين في عظمة القرآن، خصوصاً إذا كان قليل الاطلاع على العلوم القرآنية وتأريخ نزول القرآن الكريم.

والمفسرون بدورهم لا يجد أكثرهم بأساً في هذا التنوع، فتجد منهم من ينتقل في الشرح من موضوع إلى موضوع آخر دون أن يرى نفسه ملزماً بربط المعاني مع بعضها؛ لأسباب ستتضح في البحوث التمهيدية التالية بإذن الله تعالى.

وقد يفضل البعض منهم –وفقاً لمجموعة من المقدمات- أن يبحث عن موضوع واحد يجمع متفرقات السورة، وربما أدخله الإصرار على هذه الفكرة –تحت ضغط الدفاع عنها- بارتكاب بعض التعسفات التأويلية واللغوية تعود سلباً على الفكرة، وإيجاباً على خصومها الذين يستريحون إلى النظرة التجزيئية التفكيكية للآيات بزعم أن القرآن نزل متفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة.

ومن نافلة القول أن نسجل موقفنا وفكرتنا في بداية البحث دون أن نحاول إثباتها هنا، فنحن نرى أن النظرة الأولية

إلى كل سورة ينبغي أن تكون على أساس أنها وحدة واحدة، فإذا لم نستطع إيجاد ذلك المحور الواحد الذي يجمع متفرقاتها أعلنا عجزنا عن إيجاده، دون التنازل عن أصل الفكرة التوحيدية للسورة، لأننا لم نعتمد الاستقراء في ترجيحها أساساً.

كما لا بد من الإشارة إلى أن النظرة التجزيئية على كل حال لا تعني أن ننفي الرابط مطلقاً، بل يوجد بين جميع آيات القرآن روابط معنوية عامة كالهداية والدعوة إلى الحق وغيرها يصلح أن تكون محاور عامة لكل سورة، ودفاعاً عن فكرة التوحيد الموضوعي حتى حين.

وما نبحثه في ظل هذه السورة الشريفة: سورة محمد، أخص من هذا العموم، وأصعب من كل محاولة في غيرها من السور؛ لأن هذه السورة من أكثر السور تنويعاً في -ظاهرها- للمطالب وأكثرها تفكيكاً، ونحن لا نريد توضيح المحاور العامة لها، بل نزعم أن مواضيعها الظاهرية واحدة كذلك مع بعض البيان مما سيأتي بإذن الله تعالى.

ولم نُسَق إلى سورة محمد لإثبات فكرة توحيد المواضيع، بل قادنا التأمل في الكلام الإلهي إلى هذه السورة فوجدنا أنها فعلاً كذلك، ورأينا بفضل الله تعالى أنها ذات موضوع واحد وأن الغرض من جعلها تبدو وكأنها مفككة واضح، في الوقت الذي لم يلتفت إليه الكثير من الكتاب.

ولـن نجعـل نجاحنـا في تنـسيق الـسورة في محـور واحـد-إن وفقنا الله لذلك- لن نجعله دليلاً على فكرة التوحيد الموضوعي الآن، لأنه ليس غرضنا في هذا الكتاب، بل الغرض الأساسي هو توضيح وجه جديد للسورة يكون أبلغ في الهداية والاستفادة من هذه السورة المباركة، وأبعد للحرج الذي يحسّه كل قارئ للقرآن إذا استهجن المخالفون أمامه تفكيك المطالب فيها، فنضيف إليه أطروحات لتوحيد مطالبها مضافاً إلى أطروحات أصحاب النظرة التفكيكية لها فيكون أبلغ في الاحتجاج على المخالف، وأكثر تثبيتاً لثقة المؤمن ببلاغة القرآن الكريم.

ومحاولتنا لاستجلاء الوجه الجديد لسورة محمد المباركة وتوحيد ظاهر آياتها -التي تبدو وكأنها تتحدث عن مواضيع مختلفة-، والدفاع عن بلاغة القرآن وتهمة التفكيك في السرد القرآني والكلام الإلهي تتضمن عدة مستويات من التفكير:

(المستوى الأول) مناقشة كيفية تأليف مجاميع آيات القرآن التي نزلت متفرقة في السور، وما هو المقصود منها، وهل من الضروري أن تكون لكل سورة وحدة موضوعية، وما هي فكرة الجمع والتأليف، وغاية من قام بتأليف الآيات في السور أو في المصحف، فهل كان له قصد معين في تأليفه بهذه الطريقة -أياً كان من جمعه بعد تفرّقه-؟ أم لم يكن له قصد في ذلك لعدم أهمية الأمر؟.

(المستوى الثاني) الجمع اللغوي بين المفردات اللغوية المختلفة للآيات بما يحتمله الوضع والاستعمال:

فمثلاً إذا اختلف في نظرنا موضوع الآيات التي تتحدث عن الكافرين والآيات التي تتحدث عن المنافقين يمكننا تفسير معنى الكفر في الأولى على أنه كفر النفاق كما توجد شواهد عليه واقعاً، ثم تفسير ذكر الحرب فيها على أنها أمر بحرب موجهة ضد المنافقين بتوجيه سيتضح في البحوث القادمة إ شاء الله تعالى.

وبهذا يكون موضوع السورة واحداً ومختصاً بأمر يقع في حدود المجتمع الإسلامي في المدينة.

وهناك عدة طرق ومسوّغات لحمل معنى الكفر على كفر النفاق الخاص بإنكار ما نزل من ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، منها النظر إلى معنى كفر جحود ما أنزله الله في حقه (عليه السلام) على أنه من مصاديق الكفر حتى ولو كانت مناسبة نزول الآيات الأولى الكفار من منكري أصل الرسالة، فتكون السورة مفككة عند النظر إلى المعاني الأولية للنزول وموحدة عند النظر إلى درجة من درجات المصاديق.

(المستوى الثالث) الجمع بين الموضوعين المختلف ظاهرهما بحمل أحدهما على الكناية واللحن ضمن شروطهما:

فمثلاً إذا تمسك البعض بأن المتبادر من معنى الكفر هو كفر الرسالة وأن الكافرين هم كفار مكة ومشركو قريش، فيمكننا حينئذٍ أن نحتمل أن المقصود من الكفر هنا الكناية و(اللحن) عن فئة من الكفار، كما سيأتي، ومع طرح المبررات الكافية يجوز لنا وفق هذه النظرة صرف معاني كلمات الآيات عن ظاهرها وتوحيد مواضيع السورة بموضوع واحد، وهو وارد كثيراً في القرآن الكريم، ولا بد منه أحياناً، مثل تأويل معنى الأعمى في قوله تعالى: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى**﴾ (الإسراء:٧٢).

(المستوى الرابع) توحيد المواضيع بتنوع المصاديق عرضياً وطولياً:

فإذا قلنا أن مصداق الآية ﴿**الذين كفروا..**﴾ يوم نزولها هم الذين كفروا بأصل الرسالة، فمن الممكن أن نحملها على منكري ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) بالمصداق، وهو وارد في القرآن ولا بد منه، وبهذا يمكننا توفير طبقة جديدة من المصاديق توفر نسيجاً مناسباً لتوحيد موضوعي الكفر والنفاق، فآيات ﴿**الذين كفروا..**﴾ حتى وإن نزلت يوم نزولها في كفار مكة، فهي يوم جمع السور تنطبق بالمصداق على جاحدي الولاية، فيصح ترتيبها معاً، وسمينا هذا المصداق بالعرضي.

ثم تطرقنا إلى أن هناك معاني للولاية أعمق من ولاية أشخاص أهل البيت (عليهم السلام) المعروفة لعامة المجتمع في تلك الفترة وتسليم القيادة السياسية لهم، الأمر الذي يجعل كفر الكافرين في أي عصر جحوداً بولايتهم (سلام الله عليهم). وهو ما سميناها بالمصداق الطولي، وهو من أهم ثمرات هذا الكتاب المتواضع.

رؤيتان في النظر إلى تركيب مواضيع السورة

وفق ما تقدم يكون هناك رؤيتان في تركيب هذه السورة المباركة ونعني بالتركيب: ترتيب المواضيع التي تناولتها، ومن المفيد استعراضهما قبل الخوض في بحوثنا التمهيدية:

الرؤية الأولى: لبعض المفسرين ممن يرى أن آياتها متنوعة وأنها عالجت مواضيع مختلفة بين ذكر الكافرين وجهادهم، والتطرق لقضية الإيمان والكفر، والثواب الأخروي، والجهاد وشؤون الحرب وأحكام أسارى الأعداء، وشرح أحوال المنافقين، والتدبر بأحوال الأمم الماضية، والإنفاق في سبيل الله تعالى. فهي ذات مواضيع متفرقة ولا يجهد القارئ ولا المفسر نفسه بتقديم اقتراح لموضوع واحد للسورة الشريفة إلا الوجوه العامة والخطوط العريضة التي تدور حولها أغراض السور عادة

من الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر إذا كان من الضروري أن تكون لكل سورة وحدة موضوعية.

أما ما ورد من تفسير بعض الآيات بأنها في أعداء أهل البيت (عليهم السلام) فهي من باب المصداق العرضي.

والرؤية الثانية: التي ترى أن السورة نزلت في أهل البيت (عليهم السلام) ومن نازعهم مراتبهم التي رتّبهم الله فيها، وأن السورة بكاملها قطعة واحدة تناقش هذا الأمر وإن بدت لأول وهلة أنها تعالج مواضيع مختلفة، ولكنها تتحدث عما جرى في أخريات حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤامرات التي حصلت بعد إعلان ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) بصورة عامة.

وتستند الرؤية الأولى إلى الاختلاف الظاهر بين عناوين آيات السورة، فالمقصود من الكافرين المذكورين في السورة – برأي أصحاب هذه الرؤية- هم الذين كفروا بأصل الرسالة والجاحدين ﴿**بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**﴾ من أصل التنزيل، والجهاد المذكور في بعض الآيات هو جهاد الكافرين من مشركي مكة أو العرب، والندب إلى الإنفاق المذكور في السورة هو الحقوق المالية على المؤمن أو التي يُدعم فيها الجهاد العسكري. ورغم أن بعض الروايات الشريفة فسّرت ذكر (الكافرين) في بعض آيات القرآن الكريم بأنها نزلت في حق المنافقين أو جاحدي ولاية أمير المؤمنين

(عليه السلام) وبعضها في حق الذين أنكروا أصل الرسالة إلا أن أصحاب هذه الرؤية يستظهرون أن المقصود بالكافرين في سورة (محمد) هم كفار الرسالة؛ ربما لاستقرائهم استعمالات مفردة الكفر، أو لقرائن رأوها في نفس هذه السورة المباركة.

وحين يمرون بروايات تفسر بعض آيات سورة (محمد) التي ذكرت الكافرين وتكذيبهم بما أنزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتفسر الكفر بأنه في حق الذين كذبوا بما أنزل الله بحق أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير وغيره يفسرونها بأنها من باب المصداق، أي أن المعنى الذي نزلت فيه السورة هم الكافرون الذين كذبوا بأصل الإسلام ولكنها تنطبق كذلك على الذين كذبوا بجزئيات الإسلام ولوازم الإيمان وهي ولاية أمير المؤمنين والأئمة من أولاده المعصومين (سلام الله عليهم أجمعين)، وهذا مما تعارف عليه المفسرون بالجَرْي أي أن تكون مناسبة نزول الآيات في موضوع أو مورد معين ولكن من الممكن أن تنطبق على موارد أخرى تتلاءم مع مركز أو مناط موضوع النزول، أو يشترك الموضوع الجديد (المصداق) بصفة جوهرية مع موضوع النزول والتي جعلته محلاً لتعلّق مفاد الآية الشريفة التي تضمنته.

ويفهم علماء التفسير ذلك من الحديث الشريف المروي في تفسير العياشي عن بعض أصحاب الإمام الباقر (عليه السلام) في

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَومٍ هَادٍ﴾ أنه (عليه السلام) قال: (عليٌّ: الهادي، ومنا الهادي، فقلت: فأنت -جُعلت فداك- الهادي، قال (عليه السلام): صدقت إن القرآن حي لا يموت، والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين)[1].

وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): (إن القرآن حيّ لم يمت[2]، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا)[3].

وما رواه الكليني في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً (أنه قال لعمر بن يزيد لـمّا سأله عن قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ﴾: هذه نزلت في رحم آل محمد (صلى الله عليه وآله) وقد تكون في قرابتك، فلا تكونن ممن يقول للشيء أنه في شيء واحد)[4].

---

(١) بحار الأنوار: ٤٠٣/٣٥.

(٢) لأن الفهم الحقيقي لهذه التعابير الشريفة مما لا تطيقه الأفهام، حملوا معنى حياة القرآن وجريانه كالشمس والقمر وكالليل والنهار على المجاز وتعدد المصاديق بالطريقة الشائعة بين المفسرين، والحقيقة أولى.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكافي: ١٥٦/٢، الحديث ٢٨.

فيفهم أصحاب الرؤية التي ترى تعدد مواضيع السورة – بالاستناد إلى فهمهم للأحاديث السابقة- أن مناسبة نزول الآيات التي ذكرت ﴿**الذِينَ كَفَرُوا**﴾ هم منكرو أصل الرسالة، وتطبيقها في منكري ما نزل في ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) كما تقدم؛ للجمع بين ما استظهروه من الآيات مع ما بدا وكأنه معارض من معاني الأحاديث الشريفة التي سيأتي ذكرها بإذن الله تعالى.

والنظر إلى السورة كوحدة واحدة أفضل بالتأكيد من النظر إليها كمواضيع متفرقة وأكثر انسجاماً مع بلاغة القرآن وحسن ظننا بالله تعالى، ولكن في المقابل لا مانع لدى كثير من علماء التفسير من أن تكون للسورة الواحدة أغراض مختلفة لأن آيات القرآن –كما هو معلوم- نزلت في فترات ومناسبات متفرقة في الظاهر فمن الطبيعي لديهم أن تكون للسورة الواحدة مواضيع متعددة بعدد أغراض مجاميع الآيات التي أدرجت تحت عنوانها، وهو أمر لا يضر ببلاغة الآيات إن نظرنا إليها منفردة.

والنظرة التفكيكية إلى الآيات الشريفة مشهورة حتى عند الذين يقولون بأن القرآن الكريم جمع على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبتوجيهاته وإشرافه، أو أن أمير المؤمنين (عليه السلام) هو الذي جمعه وألّفه. وكثير من قراء القرآن لا يربطون بين الآيات ولا يحاولون التفكير بطريقة استنتاجية فيها، إما لأنهم يخافون من إعمال عقولهم في القرآن،

أو أنهـم يعتقـدون أن مطالـب القـرآن الكـريم فـوق عقـولهم، أو لأنهم يطلبون الثـواب لمجرد قـراءة القـرآن وكأنما يـرون أن عمليـة الثواب هو جزاء يعطى لهم بعـد الانتهـاء مـن الـتلاوة بـأي شـكل أنهوها به، وهم يفوتون على أنفسهم الثواب الأفضل الـذي هـو موجود بين آيات السورة الشريفة وكلماتها ولكنهم لا يتـدبرون القرآن حق تـدبّره، ﴿**وَتَـرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُـمْ لاَ يُبْـصِرُونَ**﴾ (الأعراف: ١٩٨).

وعلى كل حال فحتى الـذين يـرون أن رسـول الله (صـلى الله عليه وآله وسلم) جمع سور القرآن في حياته الشريفة ينظرون إلى آيات السورة الواحـدة في كـثير مـن الأحيـان نظـرة مفككـة ولا يتناولون الحديث عن صيغة الجمع ومناسباته.

فهـل يـا تـرى جمعـه (صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم) بـدون مناسبة أو لمناسـبة زمانيـة تتعلـق بتـأريخ نـزول كـل آيـة، أو لـسبب خفيٍّ، أو غير ذلك؟.

ولم تُسلط الأضواء بما فيه الكفاية على طريقة تأليف آيات السورة الواحـدة مـع بعـضها بـشكل كـافٍ وتـأثير كـل ذلـك عـلى تفسير الآيات الشريفة.

أمـا عنـد الـذين يـرون أن القـرآن الكـريم جمـع في عهـد الخلفاء الثلاثة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فالأمر

عندهم أهون، وخصوصاً وأن بعض روايات هذا القول جعلت ترتيب الآيات بأمر الصحابة واستحسانهم أيضاً.

ولأن من المفيد لأصحاب أطروحة جمع القرآن على عهد الصحابة أن لا يثار إشكال الترتيب ومعياره ومن الأفضل لهم أن يبدو القرآن الكريم مفككاً متعدد الأغراض تحت ذريعة افتراق مناسبات النزول وتأريخه؛ حفظاً لسمعة مجموعة من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين حرصوا أن ينسبوا إليهم منقبة جمع القرآن وحفظه.

ويواجَه أي إشكال حول الترتيب أو أي تساؤل عن احتمال خطأ السلف في التقديم أو التأخير في تأليف الآيات بالاستدلال بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر:٩).

وللتوفيق أو الترجيح بين الرؤيتين في النظر إلى ترتيب معاني الآيات الشريفة لسورة محمد (الرؤية الأولى التي ترى تعدد المواضيع، والرؤية الثانية التي ترى وحدتها في أهل البيت (عليهم السلام) وأعدائهم) لا بد من التطرق إلى عدة مواضيع شائكة قبل الدخول في شرح معاني الآيات الشريفة، وهي:

(١) الأطروحات في جمع القرآن الكريم.

(٢) هل حصل تغيير في ترتيب الآيات على مختلف أطروحات الجمع، أو أي نوع من التغيير.

(٣) هل حصلت هناك ترتيبات أخرى في المصحف يحتمل معها التأثير على المعاني، مثل تقسيم الآيات، وتسمياتها؟

(٤) ما هو ترتيب النزول وهل هو نفس ترتيب الجمع؟

(٥) هل القرآن الكريم قابل لتغيير الترتيب بين آياته أو سوره بغير ما هو معهود، بأكثر من أسلوب؟.

(٦) هل يوجد لحن (كناية) في القرآن الكريم ولأي غرض، وما هي شروط العدول عن ظاهر القرآن إلى المعنى الملحون؟.

(٧) فكرة المعاقد وقرائن التفسير.

(٨) معنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر:٩).

(٩) هل إن تغيير ترتيب الآيات من التحريف؟

(١٠) هل ينبغي أن تكون لكل سورة وحدة عضوية أو موضوعاً واحداً أو مواضيع مرتبطة ببعضها.

(١١) سورة محمد وما ورد عن الأئمة (عليهم السلام) من تفسيرها بالولاية.

(١٢) مصاديق الآيات هل هي مترتبة عرضاً أم طولياً؟.

(١٣) ما هو محور سورة محمد ومناسبات النزول؟

(١٤) شواهد اللحن ومعاقد السورة المباركة.

(١٥) الأحاديث الشريفة في تفسير السورة المباركة.

الأطروحات في جمع القرآن الكريم:

هناك أطروحتان في هذا الموضوع:

الأولى: وهي المشهورة عن العامة مفادها أن القرآن قد جُمع بعد عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان.

فقد رووا أنه لما استحرّ القتل بحفظة القرآن (أو قرائه) فخاف عمر أو أبو بكر أن يذهب كثير من آيات القرآن، فراجعوا زيد بن ثابت في جمع القرآن من القِطع التي كان يكتب المسلمون عليها الآيات القرآنية ومن ذاكرة المعاصرين لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتتبعوه وجمعوه في صحائف متعددة.

ورووا أن الصحف التي جمعت كانت عند أبي بكر ثم عند عمر بن الخطاب ثم عند حفصة زوج النبي بنت عمر، ثم إن عثمان، وبعد أن شاع اختلاف القراء في الأمصار والمشاكل الناجمة بسبب الاختلاف طلبها عثمان من حفصة فأمر زيد مجدداً وغيره بنسخها في مصحف واحد وأمر بإحراق أي مصحف آخر في المدن والأمصار الأخرى.

ورووا أخباراً متعددة في هذا الصدد وهي أخبار آحاد لا تنفع في إثبات هذا الأمر المهم، وهي بمجموعها[1] مختلفة ومتناقضة في أنفسها فبعضها صرحت أن عملية جمع القرآن من الصحف ومن صدور الرجال كانت في عهد أبي بكر وبعضها أنها تمت في زمان عمر.

وبعضها ينسب التصدي والابتدار وبدء طرح الفكرة لذلك العمل من قبل زيد بن ثابت وبعضها ينسبه إلى أبي بكر نفسه، وبعضها أن المتصدي هو زيد وعمر، وبعضها تزعم أن أبي بكر فوّض عملية الجمع إلى زيد لأنه (شاب عاقل لا يتهمه) كما رووا، وبعضها تناقضت في ذكر آلية إثبات الآيات التي يأتي بها الشخص فبعضها اشترطت شاهدين لإثبات الآية التي يأتي بها الشخص حتى أن عمر جاء بآية الرجم فلم تقبل منه، وبعضها يفهم منها أن إثبات الآية يحتاج إلى شاهد واحد مع من يأتي بها، أو غير ذلك.

وظاهر كثير من رواياتهم أن جميع القرآن قد جمع قبل زمان عثمان، وبعضها تجعل له حصة في هذه المنقبة، في تدوين

(١) ناقش ذلك السيد الخوئي (قدس سره) في كتابه (البيان في تفسير القرآن) في فصل (فكرة عن جمع القرآن).

آيات فات من قبله تدوينها، أو حذف شيء لا يرى أنه من القرآن وأمره المسلمين بحذفه.

ومثل عملية جمع القرآن وما له من أهمية في حياة المسلمين لا يحتمل أن تكون مرت بهذه السهولة وأنهم لم يصادفوا مشاكل كثيرة في عملية الجمع مثل قراءة الأحرف غير المحركة، أو ترتيب الآيات في السورة الواحدة أو ترتيب السور، أو تعريف المنافقين والتحذير منهم لئلا يُدخِلوا في القرآن شيئاً غيره أو يحذفوا منه ما يخصهم، ولا تذكر الروايات دوراً لأمير المؤمنين (عليه السلام) أو اقتراحاً من المسلمين في إشراكه في عملية الجمع وهو عدل القرآن والعالم بكل آية منه أفي برّ أنزلت أم في بحر أو في ليل أو نهار، ولم ينقل لنا مطالبته (عليه السلام) بذلك أو اعتراضه وقتها أو انتقاده لأخطاء أو تحيرات كان لا بد للقائمين بعملية الجمع من الوقوع فيها.

كما أن هذه الروايات غير منسجمة مع جملة روايات أخرى فُهم منها أن القرآن قد جمع أو رُتّبت سوره في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأن جميع القرآن كان في المسجد النبوي، وأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يقرأه بإملاء جبرائيل (عليه السلام) في المسجد في الأعوام الأخيرة مرة واحدة في شهر رمضان أو في العام الواحد ومرتين في عامه الأخير (صلى الله عليه وآله).

نعم من الممكن أن يكون (صلى الله عليه وآله) كان يقرأ المصحف على ترتيبه النهائي حتى لو لم يدونه ولكنه عموماً يمثل عملية الجمع الرسمية للقرآن الكريم بثوبه النهائي.

وعلى كل حال فأطروحة جمع القرآن بعد عهد رسول الله وعلى يدي الصحابة أطروحة ضعيفة تثير عدة استفهامات وإشكالات خطيرة لأنها تفتح الباب أمام احتمال الاشتباه والاختلاط في الجمع وضياع بعض الآيات كما ورد في بعضها أن آية من القرآن طلبوها فقيل لهم أنها عند فلان وأنه مات فقالوا (إنا لله وإنا إليه راجعون)، فيُفتح الباب أمام التشكيك في تحريف القرآن الكريم لأن الصحابة كما يظهر من تلك الروايات لم يكن كل واحد منهم بمفرده على إحاطة بجميع آيات القرآن وأن مثل تلك العملية من الجمع بطبيعتها لا تخلو من الأخطاء[1]،

---

(١) ونُسب إليهم تغيير مواضع بعض الآيات لصرفها عن معناها الأصلي كوضع آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ بين آيات سورة الأحزاب التي تتحدث عن نساء النبي (صلى الله عليه وآله)، وربما كان موضعها في سورة الإنسان التي تتحدث عن أمير المؤمنين والصديقة الطاهرة وابنيهما عليهم السلام. ونُسب إليهم تغيير موقع آية ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ التي يناسب كونها بعد آية التبليغ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ووضعها في آية أخرى من

والاجتهادات الشخصية في ترتيب الآيات قد تجعل من عملية الترتيب سبباً لخللٍ في المعنى حتى لو حفظت جميع الآيات بنصها لأن الترتيب يؤثر بطبيعة الحال على المعنى المستفاد.

ولكنهم كما تقدم رفضوا هذا التحريف المحتمل ارتكازاً على وعده تعالى بحفظ القرآن الكريم، بمعنى أن هذا الوعد هو معجزة سببت استقامة جامعي القرآن وعصمة عملية الجمع، ولا أعرف كيف يحتج أصحاب هذه الأطروحة بالقرآن على أهل الديانات الأخرى وهل هم يعون لوازم ما يقولون أمْ لا؟!، أو هل أن أصحاب هذه الأطروحة يتعمدون فتح باب التشكيك بهذا الشكل؟ أم أنهم استرسلوا وراء هذه الروايات تحت وهج

سورة المائدة لتضييع معناها وهي الآية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ.. وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ التي لا علاقة لها بتمام النعمة وكمال الدين يومها لأنه قد تكررت هذه الأحكام في سور سابقة.

ولكن يهون من هذا الاتهام أنه لم يحتج أحد من جامعي القرآن المزعومين في هذه الأطروحة بآية التطهير أنها في نساء النبي (صلى الله عليه وآله)، كما لم يشكّ أحد من مفسري صدر الإسلام في كون آية التبليغ نزلت في حجة الوداع لإبلاغ ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، نعم ربما هم ناقشوا في معنى الولاية، والتشكيك إنما جاء من متأخري المفسرين أمثال ابن تيمية وأتباع مدرسته وبعض المناصبين.

الرغبة في إثبات فضيلة الأصحاب على الأمة بعملية الجمع تلك التي لم يُشركوا بها أمير المؤمنين (عليه السلام)؟ أم أنهم يريدون التغطية على أمرٍ ما؟ ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (الزخرف:٧٩).

وهذه الأطروحة غير منسجمة مع ما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوليه للقرآن الكريم من أهمية بالغة في حياة الأمة الإسلامية، وأنه أحد الثقلين اللذين ينبغي التمسك بهما، فلا يعقل أنه (صلى الله عليه وآله) ترك أحد الثقلين عرضة للضياع بلا تدوين إلى وفاته وهو يعلم أنه سيقبض عاجلاً بعد أشهر من حجة الوداع وأنه ستكون هناك فتن كقطع الليل المظلم، وأن أمته ستركب سنن من كان قبلها من الأمم.

ويشير بعض المؤرخين[1] إلى أنه اطلع على نسخة قديمة يعود تأريخها إلى عهد النبي (صلى الله عليه وآله) عثر عليها

---

(١) هو الدكتور سهيل زكار رئيس اتحاد المؤرخين العرب في سوريا في برنامج (حقائق التأريخ) من على قناة الكوثر الفضائية، وقد عرض صوراً لصفحات من المصحف قال أنه شاهده بعينه وأنه كان مختوماً في كل صفحة منه بختم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنهم بعد الفحص الإشعاعي الخاص في هذا المجال تبين أنه يعود إلى الفترة الأخيرة من عمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

محفوظة في جدار في إحدى المدن السورية، ويقول إن هذه النسخة أخذتها السلطات المعنية ولم يظهر لها أثر بعدها.

وعلى كل حال فقد يعلق في الذهن أن ثمة محاولة من هذا القبيل جرت بعد عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان الغرض منها تدوين القرآن أو تعديل تدوينه أو تكثير النسخ، وقد كثر الاعتراض على عثمان بأنه أحرق المصاحف في الأمصار، الأمر الذي يدل على أن هناك مصاحف كانت قبل عهد عثمان وأنها كانت مختلفة عما عنده وأن الذين اعترضوا عليه تعرضوا لعقوبة قاسية حتى مثل عبد الله بن مسعود.

وليس من الصحيح إنكار دور الصحابة نهائياً في عملية الجمع، فالظاهر أنه كانت لهم لمسات في عملية الجمع وتنظيم المصاحف بعد عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد لا تكون بالطريقة الشاملة ولكنها تركت أثراً ما لا ننكره.

كما أن بعض الروايات تشير إلى أن ثمة ترتيباً للآيات كان في أذهان المجموعة التي انتدبت لجمع الآيات فكانوا يكتبون الآية، فإذا كانوا عهدوا آية بعدها تركوا ما بعدها فارغاً وكتبوا ما بعده حتى تأتي تلك الآية فيكتبونها في موضعها حين يتوفر شاهدان عليها، ولا يعرف لمَ لَمْ يكتباها من البدء وهم أكثر من رجل، كما أن هناك من حفظة القرآن من هو موجود بينهم لم يقتل في

يوم اليمامة مثل عبد الله من مسعود وغيره، فضلاً عن أمير المؤمنين (عليه السلام).

والبعض الآخر من الروايات تشير إلى أن عملية ترتيب الآيات كانت وفق اقتراحاتهم الشخصية فيأتي أبو خزيمة (أو خزيمة) بن ثابت بالآية الشريفة ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة:١٢٨) ولا يوجد معه من يشهد معه فتقبل منه لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل شهادته بشهادة رجلين، أو يشهد له عثمان فقط لأن معنى الآية حقيقي فيقترح عثمان: أن توضعا في آخر سورة براءة[1].

ورووا أن بعضهم رأى تشابهاً بين قصة سورة الأنفال والتوبة فقرن بينهما ولم يضع (بسم الله الرحمن الرحيم) بينهما.

والمهم من هذه الأطروحة بالتفاصيل الأخيرة أن أصحابها لا يؤمنون بأهمية الترتيب بين الآيات في نفس السورة، فضلاً عن أن يقبلوا فكرة أن يكون لآيات السورة الواحدة التي نزلت متفرقة مناسبة ووحدة موضوعية بينها إلا قليلاً جداً.

---

(١) جمع السيد الخوئي (قدس سره) تلك الروايات في كتابه (البيان في تفسير القرآن) وناقشها، ولم نرغب بتطويل البحث هنا على القارئ.

الأطروحة الثانية: وهي المعروفة عند مفسري الشيعة، مفادها أن القرآن الكريم قد جمع في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأجمعه، وأن بعض الأحاديث الشريفة كانت تتحدث عن القرآن الكريم ككتاب موجود بين ظهراني المسلمين وكان من يدخل الإسلام يأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) بعض صحابته بتعليم القرآن، وأنه (صلى الله عليه وآله) كان تولى ترتيب الآيات بنفسه حتى رغم اختلاف نزول الآيات الكريمة زماناً.

ومن أدلة هذه الأطروحة أن القرآن الكريم تحدى الكافرين أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فهو لو لم يكن ككتاب مستقل ومعروف كيف جاز أن يشار إليه بمثل ما في الآية من التحدي.

ويواجه هذه الأطروحة صعوبات أيضاً مثل أن يكون ما هو موجود في عهده (صلى الله عليه وآله) عبارة عن صحف كثيرة حتى لو كانت مجموعة في مكان واحد في المسجد إلا أنها لم تكن مرتبة من حيث التأليف والجمع في مصحف واحد، كما هو شأن من يطبع المصحف بأجزاء متفرقة ليفرقه على الحضور فيستسهلوا قراءته كما هو جارٍ في بعض مجالس العزاء في الوفيات.

والتحدي بالقرآن في الآية من سورة الإسراء ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ**

بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء:٣٨) لا يدل على مجموع القرآن بل إلى ما هو موجود منه حتى لو لم يكن مرتباً، كيف وهذه السورة مكية أو الأقل هذه الآية وفق ما يحتف بها من قرائن وقد نزل أكثر القرآن بعدها؟.

والتعبير بالكتاب في قوله تعالى: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا** (من القرآن ومما أوتي موسى (عليه السلام)) **أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** (القصص:٤٩) وقول النبي: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي) وقول عمر: (حسبنا كتاب الله) رغم ما يرجحه من وجود القرآن بهيئة مجموعية إلا أن التساؤل عن وجود ذلك الجمع وهل هو في مصحف واحد أو في صدور الرجال أو بطريقة وترتيب معهودين عند المسلمين.

هل حصل تغيير في ترتيب الآيات على مختلف أطروحات الجمع، أو أي نوع من التغيير؟

المتفق عليه تأريخياً أن الآيات القرآنية كانت تنزل على رسول الله بشكل متفرق على مدى (٢٣) عاماً بحسب المناسبات التي مرت بالمجتمع على يديه الشريفتين (صلى الله عليه وآله وسلم) **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾** (الفرقان:٣٢).

وكانت ربما تنزل السورة كاملة كسورة المائدة، أو تنزل مجاميع من الآيات بشكل متفرق عن بعضها، وربما يفهم من الروايات أنه كانت تنزل آيات من سورةٍ ما ثم تنزل آيات من سورة أخرى ثم تنزل آيات من السورة الأولى فتوضع مع أخواتها ثم تنزل آيات من السورة الأخرى فيأمرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بوضعها مع السورة الثانية وهكذا.

ووفق الأطروحة الأولى التي جعلت الترتيب من مهمة بعض الصحابة يحق لأي متأمل أن يحتمل اشتباههم في الترتيب وهم الذين كانوا يشكّون بضبط الآية إلى أن يشهد لهم شاهدان بكونها من القرآن فكيف لا نحتمل أنهم رتبوه بشكل اعتباطي أو أنهم لم يولوا الترتيب أهمية في الجمع والتأليف، وقد لا يجد من يتبنى هذه الأطروحة تحرجاً من الاعتراف بذلك سوى أنه يصر على أن اختلاف الترتيب عما كان يقرأه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يخل بحجية القرآن وبلاغته.

أما في ضوء الأطروحة الثانية فإن عملية تأليف الآيات في كل سورة كانت تجري على يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبإشرافه.

وربما يلمس قارئ القرآن الكريم أن التنوع في مطالب السورة وانتقال الآيات من موضوع إلى آخر في نفس السورة شيء شائع في كثير من السور، ولا يعرف السبب لذلك سوى ما يخطر

في ذهنه من تفرق نزول القرآن الكريم، ولكن المسألة ليست كذلك دائماً لأن بعض السورة ذات التنوع الظاهري في المطالب نزلت دفعة واحدة، فما هو سبب التنوع والانتقال في المطالب وهل هو نتيجة طبيعة عملية الجمع، أم أنه تم بفعل مقصود وبطريقة ذات غرض حكيم، أو أن العلة في طريقة نظرنا إلى معاني الآيات وضحالة معرفتنا بمعانيه، فيكون الكلام الإلهي ذا معنى متسق ولكننا لا نفهم وجه الارتباط والاتساق؟.

ونحن أمام عدة احتمالات في النظر إلى سبب وطريقة تأليف الآيات مع بعضها تحت ضغط ظاهرة تنوع المطالب والانتقال غير المترابط ظاهراً بين المواضيع:

(١) أن الصحابة الذين جمعوا القرآن ورتبوا آيات السور جمعوه وفق ما كانوا يسمعونه من رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(٢) أن الصحابة اجتهدوا في ترتيب الآيات من تلقاء أنفسهم بملاحظة السياق أو غير ذلك.

(٣) أنهم لم يراعوا أي ضابطة في التأليف وكان همهم جمع القرآن في مصحف واحد، خصوصاً وأن أغلب الآيات يُعرف موضعها والدقة غير مطلوبة في القليل المتبقي.

(٤) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) جمع القرآن وألّف الآيات وفق تأريخ النزول لكل آية.
(٥) أنه (صلى الله عليه وآله) لم يلاحظ أي مناسبة في الجمع بل كان حريصاً على أمر مهم واحد وهو جمع القرآن في مصحف واحد أو هيئة واحدة حتى ولو لم تكن مدونة.
(٦) أنه (صلى الله عليه وآله) ألفه بطريقة تختلف عن تأريخ النزول بل بملاحظة مناسبات هو يعرفها.

والاحتمال الأول (ترتيب الصحابة للآيات في السور وفق سماعهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله)): لم يرد في روايات القوم صريحاً ولعل بعضها يكشف عن شيء من معرفة الصحابة لمواضع الآيات مما سمعوه من تلاوة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، ولكنه ليس لمجموع القرآن الكريم، فيبقى احتمال التصرف والاجتهاد متوقعاً.

أما الاحتمال الثاني (وهو اجتهاد الصحابة في الترتيب): فهو يعني أن لا حجية للترتيب المألوف الذي جرى على عهد الصحابة؛ لأن اجتهادهم –حتى على مباني أهل العامة– غايته أن يجعل عملهم صحيحاً ولا يمنع من احتمال خطأهم (وليس الخطأ

علـى المجتهـدين بعزيـز)، ولا يمنـع مـن إعـادة الترتيـب بـصورة صحيحة أخرى من قبل من له الأهلية.

أما الاحتمال الثالث (عدم مراعاة أي ضابطة في التأليف) لـسبب أو لآخـر: فـالمفروض وفـق هـذا الاحتمـال أن لا يـرفض التفكير بترتيب آخر طالماً أنهم لم يبالوا بالترتيب في ذلك العصر.

والاحتمالات الثلاثـة المتقدمـة تبتنـى علـى أطروحـة جمـع الأصـحاب للمـصحف وقـد عرفنـا الاعتراضـات علـى تلـك الأطروحة وحدودها.

أما الاحتمال الرابع: وهو أن يكون (صلى الله عليه وآلـه وسلم) جمعه وفق تأريخ النزول، فواقـع المصحف اليوم يخالفـه لأننا قد نجد السور المكية في آخر المصحف والمدنية في أولـه، ونجـد في نفس السورة المكية آيات مدنية وفي الـسور المدنيـة آيـات مكيـة، ومفسرو صدر الإسلام لم يجدوا حرجاً مـن ذلـك ولم يعترضـوا على مـن يـصنف الآيـات في نفـس الـسورة علـى أن بعـضها مكـي وبعضها مدني، وكثيراً ما نجد في تفاسيرهم أن هذه الـسورة مدنيـة إلا الآيـات كـذا وكـذا فإنهـا مكيـة، وأن تلـك الـسورة مكيـة إلا الآيات كذا وكذا فإنها مدنية.

أمـا الاحتمـال الخـامس: وهـو أنـه (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) لم يلاحظ أي مناسبة عند جمع الآيات أو مجاميع الآيـات المتفرقة؛ لأنه ليس هناك ضرورة لهذا الجمـع، أو أن نـزول مجاميع

الآيات كان فعلاً متفرقاً عن بعضه فلا مانع أن تكون هناك مطالب متفرقة تُجمع في سورة واحدة وينال قارئ السورة فوائد متفرقة منها.

ولكن هناك مجموعة من القرائن تقف ضد هذا التصور، لا أقل أن الكلام المرتبط مع بعضه هو أفضل من الكلام المتفرق، وأن نفس المنظومة المعرفية الدينية منظومة مترتبة مع بعضها ويجمعها نسق فكري يرجع متفرقاتها إلى محاور أو محور رئيسي واحد.

والاحتمال السادس: بعد كل ما تقدم هو الأوجه، وهو احتمال أن يكون (صلى الله عليه وآله وسلم) قد لاحظ مناسبة معينة في جمع الآيات في السور، وتلك المناسبة قد تكون سياقية أو موضوعية أو بلاغية تتعلق بنسق الآيات أو غير ذلك، بغض النظر عن تأريخ نزول الآيات.

وقد يخطر في ذهن البعض أن المناسبة الرئيسية التي ألفت بين الآيات في السورة الواحدة هي في الصيغة البلاغية أو النسق أو (السجع اللفظي) بين كلمات أو نهايات الآيات الشريفة.

وهي فكرة قوية يؤيدها استقراء الآيات الشريفة، ولكنها ليست ضرورية ومطردة لأننا نجد في آيات السورة الواحدة في بعض الأحيان اختلافاً بين نهاياتها بل وبين نسقها وسجعها، وهو شيء لا يضر ببلاغة القرآن الكريم ألبتة والالتزام بنهاية واحدة

للآيات غير ملزم. كما أن هذه الأطروحة لا تمنع من الاجتماع مع غيرها وهو أن الله تعالى أنزل الآيات التي لها معنى واحد وموضوع واحد بنسق واحد رغم اختلافها زماناً ﴿**لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى**﴾ (طه:٥٢).

وقد يرى البعض أنه لا مانع من أن يكون للسورة الواحدة مواضيع مختلفة وأن الرابط العام بين تلك المواضيع ومجموعات آياتها هو عنوان عام كالهداية والتوجيه إلى الإيمان بالله تعالى وتصديق الرسل أو التقوى وتربية الناس. ويساعد ظاهر القرآن على ذلك فإننا نرى مواضيع متعددة حتى في السور القصيرة من القرآن الكريم كالعلق والجمعة وغيرها. وعليه فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لاحظ تلك العناوين العامة فقط، ولم يكن متشدداً في وضع موضوع عام لها.

أما تحديد السور في المصحف بحدود خاصة وإعطاؤها تسميات معينة فهي لم تكن إلا عملية ترتيبية تصنيفية وأن أسماء السور كانت لتمييزها فقط وأن بعض أسماء السور كانت منه (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعضها كان من غيره لتمييزها عن سواها فربما سميت بعض السور بأسماء مثل (المنافقون) (الكافرون) (أبي لهب).. وربما كان لنفس السورة أكثر من اسم كسورة بني إسرائيل التي هي الإسراء، وسورة براءة التي هي التوبة وغيرهما.

فعملية الجمع لم تكن لتضر شيئاً بالغرض القرآني، ولو كان الترتيب الجديد سيغير من المعاني لوجدنا من التفت إليه أو من تعجب للمعاني الجديدة بعد التأليف عنها قبل التأليف الموحد.

وهو رأي نتركه كأطروحة منفصلة يعود إليها من يستصعب تصور وحدة موضوع السور، وفي مقابلها أطروحة المحور المشترك والموضوع الواحد التي نؤمن بها، وتقدم أنا أجّلنا الفصل بين هاتين الأطروحتين عن هذا الكتاب، ونترك للقارئ ما يختاره.

والاحتمال الأرجح: أن النبي (صلى الله عليه وآله) وضع الآيات في السور بشكل مرتب لتكون دالة على معنى واحد مقصود من أول الأمر، وأن تفرق نزول الآيات لم يكن ليضيع معناها الواحد وهي المنزلة من قبل الواحد على قلب النبي الأكرم في ليلة واحدة فلا يضرها التفرق على مدى السنين، لأن ذلك التفرق في الكلام إنما يجعل المتكلم العادي من أمثالي ينسى أول كلامه ويناقض به آخره أما من هو فوق الزمان فلا يؤثر عليه اختلاف السنين ولا يختلف منهجه وغرضه.

فالقرآن الكريم رغم أنه نزل متفرقاً وكان بليغاً في تفرقه إلا أن توحيد الآيات في السور المتفرقة كشف عن تركيب جميل أيضاً وهندسة بين آياته بحيث ترى الآيات التي نزلت نجوماً

متفرقة وكأنها تتسلسل في كلام واحد يأخذ بعضه برقاب بعض ويؤيد آخره أوله.

وقد تواجه هذه الأطروحة صعوبات معينة منها: أننا نشاهد واقعاً مواضيع متفرقة بين الآيات المختلفة في نفس السورة مثل سورة محمد التي نحن بصددها، فأين هي تلك الوحدة؟

فيجاب هذا الإشكال بعدة مراتب من الإجابة:

١- إن كثيراً من سور القرآن الكريم مرتبة وذات ارتباط بين آياتها، وحتى لو بدت وكأنها ذات مواضيع مختلفة إلا أنها مواضيع مرتبطة ببعضها ولا مانع في الكلام البليغ أن يتحدث المتكلم عن عدة مواضيع كلها مهمة وضرورية ونافعة للمتلقي، فيكون النفع هو الرابط العام.

٢- إن كثيراً من السور ذات موضوع واحد وإنما إشكال التعدد الموضوعي يجري على سور معدودة من القرآن، ولا يضر ذلك بأصل الفكرة.

٣- إن هناك ارتباطاً ولكنه يحتاج إلى مستوى من الفهم ومقدار من التأمل لاستيضاح الرابط. والقرآن كلام عميق يفهم الإنسان منه بمقدار وعاء عقله، وله مطالب شامخة جداً فمن الطبيعي أن يبدو شيء منه غير مفهوم وغير مرتب مثل تلميذ في المراحل الأولى من الدراسة يقرأ

نصوصاً معمقة من المراحل المتقدمة فلا يفهم كثيراً منها بل قد يبدو أكثر الكلام لديه مفككاً عن المقدار الذي فهمه.

٤- إن المواضيع قد تكون متفرقة في ظاهرها ولكن لها ارتباط في عالم الملكوت، فقد تتعدد عدة أوامر في مواضيع مختلفة كالإنفاق أو القتال أو العفة وكلها من مصاديق التقوى أو الولاية ومن لوازم الإيمان، فكلما تعمق الإنسان في معرفة النفس وفهم المعنويات يصبح أكثر التفاتاً إلى تلك الجوانب من مواضيع الآيات المختلفة.

٥- ما ذكره بعض المفسرين أن لا حاجة للتعرض (لبيان النظم بين الآيات وذلك لأن الجامع القريب في جميعها موجود وهو تكميل النفس أو الهداية ومع وجوده لا وجه لذكر النظم بين الآيات لأن الغرض القريب بنفسه هو الجامع والرابط بين الآيات[١]. وكلامه (قدس سره) يستحق التأمل.

والحق أن بعض المطالب في السورة الواحدة وأحياناً في الآية الواحدة تبدو مفككة ولم يفلح جميع المفسرين في تقديم فهم موحد لها، فالنظريات والاحتمالات المتقدمة تحتاج إلى تطبيق

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج١، صفحة ٧.

يجعلها منسجمة وواقعية، ولا يستطيع الإنسان المتفكر أن يسترسل معها دون أن تثار في ذهنه عدة علامات استفهام.

منها ما ورد في سورة الأحزاب من وجود آية ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب:٣٣) بين آيات تتحدث عن نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتوجه إليهن التحذيرات والتوجيهات[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ ... ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (المائدة:٣) فلا يبدو مفهوماً إتمام الدين بتحريم تلك الأمور التي سبق ذكر تحريمها في آيات أسبق[2]، ولا يفهم ما علاقة اضطرار المؤمن بعد إكمال الدين؟.

---

(١) نعم حمله بعض المفسرين على أن التوجيهات لنساء النبي (صلى الله عليه وآله) إنما هي لأهمية علاقتهن بالأسرة الطاهرة وكأن كل ذلك التحذير والتنبيه لنساء النبي من أجل تطهير لواحق هذه الأسرة العظيمة، ولكنه احتمال بعيد وصعب علينا رغم إمكانه.

(٢) بل في الشرائع السابقة فالمحرمات المذكورة في الآية ذاتها محرمة في شريعة أهل الكتاب كما ذكر القرآن الكريم في مواضع أخرى.

وهناك أطروحة جديدة: مفادها أن القرآن الكريم أو بعض سوره رُتّب بهذه الطريقة التي تبدو وكأنها مفككة، لمصلحة في ذلك التفكيك، فلا يعرف المعنى الجامع بين متفرقات الآيات إلا من له حظ من التدبر والعقل ومن سبقت له من الله الحسنى، كمن يصوغ كلامه على نحو التورية واللحن لئلا يلتفت إلى مقاصده جميع المتلقين ويقتصر على فهم مقاصده من ينتبه إلى مفاتيح التورية فيعلم منها المقاصد الحقيقية للآيات، دون أن يخل هذا الترتيب الظاهري بالمعاني الظاهرية للقرآن الكريم بل يبقى كل شخص ينتفع منه بمقدار ما يسعه وعيه.

والمصلحة في ذلك أن الله تعالى لما علم أن الأمة لن تتقبل بعضاً مما نزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مثل ما أنزله الله تعالى في حق أمير المؤمنين (عليه السلام) ومعاني ولايته التي لا تطيقها أكثر نفوس الناس يومئذ ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ..**﴾، وعلم تعالى أنهم سيتولون على حكومة الناس بالغلبة والجور ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُم إنْ تَوَلَّيْتُم فِي الأَرضِ أنْ تُفسِدُوا..**﴾ وعلم أنهم إذا رأوا ما يحرجهم في القرآن الكريم سيعمدون إلى تحريف نصه والتجرؤ عليه لإثبات ملكهم وزحزحة الخلافة عن أهل البيت (عليهم السلام) بأي ثمن، فإنه سبحانه لما علم ذلك منهم جعل هناك صعوبة في تلقف المعاني المتعلقة بحق أهل البيت وولايتهم (سلام الله عليهم)، لكي يطمع أعداء أهل البيت من

قادة الفتنة والمؤامرة بجهل الناس فلا يضطرون إلى تحريف وتغيير القرآن لئلا يثور الناس ضدهم، فطمعوا بتحريف معاني القرآن التي لاحظوا أن فيها قابلية للانطباق على عدة مصاديق مختلفة تقبل التمويه على العامة، دون أن يضطروا إلى تحريف النصوص.

وكان من أساليب القرآن الكريم أن كنّى عن بعض المطالب المعمقة والخطيرة بكنايات معينة، وجعل بعض المطالب مبعثرة لا يُنتبه إليها بسهولة، عقوبة وفتنة للذين لا يتدبرون في القرآن من مقصري الأمة المنحرفين عن أهل البيت (عليهم السلام)، وحفظاً لنصوص القرآن الكريم عن التلاعب بها وتحريفها.

أما المؤمنين الذين ﴿**يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ**﴾ فسينتبهون بنور الله وهدايته إلى مواضع اللحن ومقاصد الكلام الإلهي بسعة أفقهم وحسن ظنهم بالله تعالى: ﴿**وَلَتَعرِفَنَّهُم بِلَحنِ القَولِ**﴾.

وقد ورد عن تفسير القمي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾ (النحل:٩٠) قال: (العدل شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والإحسان أمير المؤمنين عليه السلام، والفحشاء والمنكر والبغي فلان و فلان وفلان).

ويروي النعماني في الغيبة عن الكليني بسنده عن محمد بن منصور قال: (سألته يعني أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف:٢٨) قال: فهل رأيت أحداً زعم أن الله أمره بالزنا وشرب الخمر أو شيء من هذه المحارم؟ قلت: لا، قال: فما هذه الفاحشة التي يدّعون أن الله أمرهم بها؟ قلت: الله أعلم ووليه، قال: فإن هذا في أولياء أئمة الجور ادّعوا أن الله أمرهم بالايتمام بهم، فردّ الله ذلك عليهم، وأخبرهم أنهم قالوا عليه الكذب، وسمى ذلك منهم فاحشة).

وبنفس الإسناد قال: (قال: سألت عبداً صالحاً عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ..**﴾ (الأعراف:٣٣) قال: فقال: إن القرآن له ظاهر وباطن فجميع ما حرم الله في القرآن فهو حرام على ظاهره، كما هو في الظاهر والباطن، من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحل الله في الكتاب فهو حلال وهو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الهدى).

بل يُفهم من بعض الأحاديث أن قولهم ﴿**اتَّخَذَ الرَحمنُ وَلَداً**﴾ (مريم:٨٨) المقصود منها الكناية أيضاً عن مثل هذه الأمور في بعض المواضع.

إلى غيرها من الآيات التي يفهم فيها أن للقرآن ظاهراً وباطناً وأن الباطن المتعلق بولايتهم (عليهم السلام) كُني عنه بمصطلحات يفهم منها عامة الناس أشياء ظاهرية معروفة لديهم.

والسؤال المهم هنا والذي قد يقفز في أذهان القرّاء هو: ما قيمة الظاهر وهل هو متعارض مع الباطن، وهل هو مجرد غطاء لا اعتبار به ورموز عن المقاصد الحقيقية، وما هو ارتباطه بالباطن، فكيف تكون أسماء العبادات (العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) مرادفة لولايتهم، و(البغي والعدوان والزنا) مرادفة لولاية أعدائهم؟؟.

والأمر يتطلب شيئاً من تحليل هذه الطاعات والذنوب تحليلاً نفسياً، فالطاعات نشأت من أنوار نفسية أنعم الله تعالى بها على العباد من عالم الملكوت، ولتلك الأنوار أسماء تنطوي في أهل البيت (عليهم السلام) فمن له التزام بظاهر هذه الأمور فهو مرتبط بأسمائهم النورية في عالم أعلى وقد خلق الله عالم الملك الظاهر على نسخة عالم الملكوت الباطن، وإن للطاعات كذلك آثاراً فعلية تقود إلى زيادة الإيمان والتقوى وذكر الله تعالى، وكل تلك الأشياء لها ارتباط بأهل البيت سلام الله عليهم لا ينفك عنهم.

أما المعاصي والذنوب وما تتضمنه من اعتراض وحسد وحرص وشره إنما فتح أبوابها أعداء أهل البيت وكانوا سبباً لكل

تلك الذنوب، وهم أبواب جهنم وتوابيتها التي تُسعّر بسببهم يومياً، وكل ذنب من أي كان إنما هو جحود وكفر بتلك الأنوار الإلهية والحجج العقلية التي يجدها كل إنسان في ضميره، فكل ذنب هو كفر بها وتمرد عليها كما حصل من لدن الأولين والآخرين.

وبإمكان الجميع ملاحظة أن هذا العالم يتألف من الأشياء الخارجية التي ينالها الحس وتسمى بالأشياء المادية، وأشياء من نوع آخر، كالخيالات والوسوسات، وأشياء تعرض في النفس كالاطمئنان واليقين والتوجه إلى الله تعالى، والراحة النفسية، وحب عمل الخيرات المتنوعة، وكل تلك الأشياء إذا تمت مراقبتها بدقة وتسميتها وترتيبها ستقود إلى تأسيس لغة جديدة لما يمكن للإنسان أن يعرفه مما هو فوق عالم الحس وما هو قريب من الحس، عالم أوسع كثيراً من المادة ولوازمها، وهو مليء بالتفاصيل والمعالم ذات التعيّنات الواضحة المهمة في سير الإنسان نحو الله تعالى، بل حتى الطريق إلى هناك ينظر إليه بعينية وتشخّص[1].

---

(١) من الأخلاق الإلهية لرسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه كان يسمي كل شيء من أدواته كالعمامة والفرس، وربما سمى المولود قبل ولادته مع قلة الحاجة إلى ذلك من وجهة نظرنا، فانتبه.

وربما سبب إهمال بعض المتشرعة لمثل هذه الأمور ما قيل من أنها عوارض للنفس والعرض أقل وأضعف وجوداً من الجوهر بحسب ما توحيه جملة من النظريات الفلسفية.

ولكن هذا لا يبرر إهمال النظر إليها حتى لو كانت عرضاً للذات أو للوجود، بعد أن نظر إليها الحق سبحانه وأكد على أهميتها كما في التأكيد على الصفات النفسية والأخلاق وهي كما قيل عوارض وكيفٌ للنفس، وأكدت جميع كتب الأخلاق على ضرورة مراقبتها وترتيبها. مع أن النظرة الفلسفية المعمقة ترى أن جميع ماهيات الأشياء ما هي إلا عوارض للوجود المطلق، فهل معنى ذلك أن نهملها جميعاً[1].

---

(١) من الجدير بالذكر أن تقسيم العالم إما إلى جوهر أو عرض على نحو مانعة الجمع ومانعة الخلو: هو من موروثات الفلسفة اليونانية القديمة، وتفيد معطيات المعرفة الإلهية المعمقة عدم جامعية هذا التقسيم فالنفس الإنسانية كما قيل لا جوهر ولا عرض، والذات الإلهية لا جوهر ولا عرض، وخلل الجامعية بين العرض والجوهر لما هو معروف من تجسم بعض عوارض هذا العالم في عالم الآخرة وما يُفهم من بعض النصوص من انفصالها يومذاك عن نفس الفرد.

هل حصلت هناك ترتيبات أخرى في المصحف يحتمل معها التأثير على المعاني؟

تتحدث الكتب التي تسطر تأريخ القرآن أنه حصلت تغيرات في شكل المصحف الشريف مما يحتمل معه تأثير التحكم به على معنى الآيات، منها:

(١) وضع تسميات لأكثر السور الكريمة، وقد تؤثر التسمية في تغيير فكرة القارئ عن السورة.
مثل تسمية سورة (محمد) بسورة (القتال) فيظن القارئ أن الفكرة الرئيسية فيها هي قتال الكفار، ولكن ما ثبت في المصحف اليوم هو الاسم الأول بحمد الله تعالى.

(٢) وضع علامات تقسّم كل عشر آيات على حدة ثم جُعلت علامة بين كل خمس آيات، ثم جُعلت بين كل آية كما هو موجود اليوم في المصحف.
وهذا يعني أن سياق الكلام القرآني كان مستمراً بلا فواصل، وأن الآيات كانت تعني انتهاء العبارة بالسجع القرآني أو انتهاء الفكرة من العبارة، وهذا الأمر -أي تأخُّر الفصل بين الآيات- سبب اندماج بعض الآيات مع بعضها كما يأتي من كون قوله تعالى في الآية الرابعة من السورة: ﴿**فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**

فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ كما عن بعض علماء القرآن احتمال كونها آيتين تنتهي الأولى بكلمة ﴿**أوزَارَهَا**﴾ وغيرها من الآيات.

ويحتمل أن هناك اختلافاً في المعنى بين ما هو مذكور من مصطلح (الآية)، وما هو موجود في المصحف الشريف.

(٣) وضع علامات الإعراب أي ما يعرف اليوم بالحركات على نهايات الكلمات أو على الأحرف، وقد سبب الاختلاف في الاجتهادات بشأن الحركات إلى تعدد القراءات إلى سبع قراءات أو عشر قراءات أو أكثر من ذلك، وسيأتي كيف أثّرت القراءة على فهم حكم مسح الرجلين أو غسلهما في الوضوء.

(٤) كتابة المصحف بالطريقة التي تعرف بالخط العثماني مثل كتابتهم ﴿**وَلِئِنْ لَم يَفعَلْ مَا آمرُهُ لَيُسجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَاغِرِين**﴾ (يوسف:٣٢) فلماذا كتبت نون التوكيد بالألف المنون، وهل هي بالأصل نون توكيد

مخففة فكتبت كما تلفظ مساعدة في تعليم لفظها، أو لغير ذلك؟.

(٥) غيرها من الإضافات على المصحف مثل علامات الوقف في التلاوة، التي تكون أحياناً من التفسير، فقد تؤثر في توجيه نظر القارئ الاعتيادي إلى فكرة معينة، مثل قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾ (آل عمران:٧) فقد وضعوا علامة الوقف في التلاوة على كلمة ﴿**اللهُ**﴾ وكأنما ما بعدها كلام مستأنف لا ربط له بما سبق لاستبعاد أن يكون هناك من الأمة من هم على علم بتأويل القرآن، وغيرها..

ولا شك بتأثر تلك الأمور والملحقات جميعاً بوجهة نظر من وضعها بدل العكس، ولم يكن المعصومون سلام الله عليهم هم من تولوا ذلك، بل ورد أنهم (عليهم السلام) سايروا الوضع وأمروا الناس أن يقرأوا كما عُلّموا، فأجازوا القراءة بأي

قراءة كانت معروفة في عصرهم، لأسباب لا تخفى على من عرف تأريخهم مع السلاطين وعلماء السلاطين، فيحتمل بشكل وجيه أنهم أرادوا درء الفتنة عنهم (عليهم السلام) وعن شيعتهم والحفاظ على الثقة بالقرآن الكريم من تشكيك غير المسلمين، أو أرادوا غلق الباب أمام المخالفين لئلا يشككوا في نفس نص القرآن الكريم، طالما أن تلك الاختلافات البسيطة في الحركات أو الإشارات وغيرها لا تضر بحجة القرآن وذكره. أو أنهم (عليهم السلام) خافوا من تشنيع المخالفين عليهم وعلى شيعتهم، ولا زال ذلك التشنيع موجوداً لإبعاد الأمة عن التشيع بحجة أنهم يقولون بتحريف القرآن الذي حُفظ بالوعد الإلهي.

ولكن ما يهوّن خطر كل ذلك أن جلة المفسرين يعلمون تأريخ كل ذلك ويحققون في المعاني بمعزل عن هذه الأمور، وهو من الحفظ للقرآن الكريم الذي وعد به سبحانه.

ما هو ترتيب النزول وهل هو نفس ترتيب الجمع؟

وهو سؤال ضروري جوهره الاستفهام عن هوية المسؤول عن طريقة الترتيب التي جُمع فيها القرآن الكريم، وهل هو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جعله بهذا الترتيب على غير الترتيب الذي أنزلت فيه آيات القرآن أي على غير التسلسل الزماني الذي نزلت فيه، أم أن الله سبحانه هو من أنزله بهذا الترتيب من الأصل ثم اختلف النزول في هذا العالم الأدنى؟.

وقد يبدو السؤال فارغاً من المحتوى لأننا نعلم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يعمل شيئاً إلا بأمر الله تعالى وحتى في المدارس الإسلامية الأخرى فهم لا ينزلون إلى مستوى اتهام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالتلاعب من تلقاء نفسه بما فيه تشويه لمطالب القرآن الكريم والله سبحانه يقول: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾ (الحاقة:٤٤-٤٦).

ولكن لماذا لا ننسب نحن القائلين بعصمته المطلقة كل ما فعله (صلى الله عليه وآله) إلى الله تعالى، وتجدنا نصنف ما ورد عنه (صلى الله عليه وآله) أن هذا سُنة وهذا كتاب، فهلا قلنا أن جميع ما جاء به (صلى الله عليه وآله) هو من الله تعالى خصوصاً وأنهما (القرآن والحديث) بنفس الدرجة من الحجية: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ**﴾ (الحشر:٧)؟ فهل للتصنيف

والفصل بين أمر الرسول (صلى الله عليه وآله) والأمر الإلهي فائدة وهو (صلى الله عليه وآله) الذي ﴿**مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ (النجم: ٣-٤)؟.

لكننا نستظهر من بعض القرائن أن الأعمال التي أوكلها الله تعالى إلى نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) وفوض إليه لمسة التغيير فيها، هي أشياء في كثير منها تحمل المرونة ليقوم بتغييرها هو بنفسه أو أهل بيته (عليهم السلام) في ما بعد فلا يصعب على عامة أمته (رغم قبولهم بعصمته) قبولها منه، على خلاف ما لو كانت موجودة بنص القرآن الكريم، فإنه لو غيرها بنفسه لما يدرك من كونها (متغيرة أو مرنة بحسب الموضوع) لكثر الاعتراض عليه من المنافقين كما حاولوا ذلك في بعض المناسبات تحت ذرائع شتى، ولصعُبَ على الناس الذين تعودوا فهم القرآن وفق علاقتهم المحدودة بواقعهم أن يغيروا فهمهم إلى الوضع الجديد.

فإن الشيء إذا كان مذكوراً في القرآن الكريم وكان في حقيقته مرناً متغيراً، ثم يغيره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دون أن يستطيع عامة الناس وجهلتهم والمغرضين استيضاح جهة التغيير والثبوت في الأمر الإلهي سيثار إشكال وشك في النفوس في ما يتعلق بعصمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو في ثبات القرآن وخلوده، فكان أن أوكل الله تعالى بعض

الأمور التي ذُكرت مجملة في ظاهر القرآن الكريم إلى رسوله وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر:٧) لتكون له (صلى الله عليه وآله وسلم) الحجية في التشريع في فروع ذكرت أصولها في القرآن الكريم.

ونحن نعلم أن أفعال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حجة كما هي نصوص القرآن الكريم، فلا يتجرأ أحد على تغيير أحكامه، إلا أن أهل بيته الكرام (عليهم السلام) هم أعلم الناس بالثابت والمتغير من أحكامه الشرعية فلهم فقط هذا الحق ولا يجوز لغيرهم ذلك، نعم قد تتغير الأحكام بتغيّر موضوعاتها وعناوينها وانقلابها عما كانت عليه مما يبدو وكأنه تغيير في الحكم، ومثل تلك الأمور يعرفها فقهاء الأمة العالمون بطريقة استنباط الأحكام الشرعية(١).

ومن ذلك ما قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام) في أنه لماذا لا يتخضب بحسب ما جاء من أمر رسول الله (صلى الله عليه

---

(١) ولا يُسمح بفتح الباب أمام تغيير الشريعة بحسب الأهواء ليناسب الأذواق الغربية المنحرفة كما يريده دعاة الثقافة المعاصرة اليوم، فيدعون إلى تغيير حتى الأحكام التي وردت بنص القرآن ويزعمون أنها مخالفة للعقل دون أن يطرحوا تعريفاً للعقل –وهم أبعد من ذلك– وإنما يريدون بالعقل ما يلائم المقبولات والأذواق الغربية رغم أنها مختلفة في ما بينها بالذات، فيدعون إلى تغيير ما يحرجهم أمام الغرب بحجة الثابت والمتغير في الشريعة!.

وآله) بالخضاب فقال (عليه السلام): (إنما قال رسول الله ذلك والدين قُل، أما وقد ضرب الإسلام بجرانه فامرؤٌ وما اختار)، فهو (عليه السلام) كان يعلم سبب ذلك الحكم كأن يكون لتمييز المسلمين عن اليهود في المظهر الديني، أو لإخفاء كهولتهم فيستضعفهم العدو على قلتهم، فعلم (عليه السلام) سبب أمر رسول الله بالخضاب وأنه إن كان واجباً أو مستحباً فهو متعلق بظرفه أو موضوعه، وقد فضل أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يكون خضابه من دم رأسه كما وعده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وحصيلة القول -بحسب هذه الأطروحة- أن عملية الترتيب أوكلت بعض أمورها إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا مانع من تصور قابلية الترتيب بطريقة أخرى ولكنه (صلى الله عليه وآله وسلم) اختار هذا الترتيب في ذلك الزمان لأنها مناسبة لقدر عقول الأمة، وأخفى علم إعادة ترتيبه عن عامة الناس إلا أهل بيته الكرام (عليهم السلام)، فيكون لأهل بيته فيما بعد أو لقائمهم (سلام الله عليهم أجمعين) في آخر الزمان إعادة ترتيبه بطريقة أخرى أو بأكثر من طريقة، لتفتح أبواب أكثر للاستفادة من القرآن تناسب الوعي الجديد.

ويكون ترتيب آيات القرآن وتأليفه في كل زمان حجة كافية على أهل ذلك الزمان.

مراتب التأليف والجمع

هذا إذا فهمنا أن الترتيب الحقيقي للآيات هو التسلسل الزماني لنزولها في الشهر الأول من السنة الأولى مثلاً ثم في الشهر الثاني منها فتكون آية الشهر الأول أسبق في الترتيب في السورة من آية الشهر الثاني.

ولكننا قد نفهم من التسلسل في النزول معنىً غير مرتبط بالزمان، بل هو مرتبط بالمعنى الذي تتحدث عنه الآيات المنزلة، مثل من يعيد تصنيف النصوص التي بين يديه بحسب الموضوع أو الأهمية أو الفهرست الهجائي، ويكون لكل عالم من عوالم نزول القرآن ترتيب خاص به لتلاوة القرآن بحسبه، فنحن نعلم أن القرآن الكريم حبل ممدود بين الله وبين خلقه، ولذلك الحبل مراتب قال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ (الزخرف:٣، ٤).

ويؤيد أطروحة اختلاف تأليف القرآن وترتيبه بحسب عوالم الإنزال ما يُفهم من مقارنة مناسبة نزول الآيات الأخيرة من سورة البقرة على النبي الأكرم ﴿**آمَنَ الرَسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤمِنُونَ..**﴾ (البقرة:٢٨٥-٢٨٦) مع وقت نزولها عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) لقراءتها على المجتمع، فقد ورد في تفسير القمي عن هشام عن الصادق (عليه السلام) قال: (إن هذه

الآية ﴿**آمَنَ الرَسُولُ..**﴾ مشافهة الله تعالى لنبيه ليلة أسري به إلى السماء، قال النبي (صلى الله عليه وآله): لما انتهيت إلى محل سدرة المنتهى.. فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى.. فناداني ربي تعالى: **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ من رَّبِّه**، فقلتُ مجيباً عني وعن أمتي: **وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّه ومَلآئكَته وكُتُبِه وَرُسُله لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُله وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**. فقال الله: **لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**، فقلت: **رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**، وقال الله: لا أؤاخذك، فقلتُ: **رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**، فقال الله: لا أحملك، فقلتُ: **رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِه وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**، فقال الله: قد أعطيتك ذلك لك ولأمتك..) الحديث.

والمعروف أن هذه الآيات نزلت في المدينة المنورة وحادثة الإسراء كانت قبل الهجرة المباركة، مما يعني أن ذلك الصعيد شهد شهادة المؤمنين جميعاً بشفاعة نبينا وهدايته الأزلية لهم وأنزلت تلك الآيات على قلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل إنزالها على رسول الله لتُقرأ على المجتمع. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله): ﴿**لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي**

أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ..﴾ (البقرة: ٢٨٤)، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) جثواً على الركب فقالوا: يا رسول الله كلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم وذلّت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ.. الآية﴾** (البقرة:٢٨٥) فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل: **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا** ... إلى آخرها﴾.

وتصور ترتيب القرآن على غير الترتيب الزماني للحوادث شيء مستصعب على الأفهام؛ لأنه يتطلب تصور الأشياء على غير العلاقات الزمانية والمكانية المألوفة بينها، وهو يقود إلى تصور نزول مفتوح على طول العصور[1].

---

(١) سنتناول إن شاء الله تعالى تفصيل ذلك عند تعرضنا للحديث حول قوله تعالى: **﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾** (الإسراء:١٠٦)، وعند التعرض لبحث الحروف المقطعة في كتاب (عواطف الآملين) في شرح سورة القصص المباركة.

ويؤيد هذه الأطروحة (أطروحة المرونة في الترتيب والقابلية على إعادة التأليف): أن بعض شيعة أهل البيت (عليهم السلام) قرأ القرآن أمام الإمام الصادق (عليه السلام) بطريقة معينة لم يصرح الحديث بها، فنهاه الإمام (عليه السلام) عنها وقال له: إنه إذا قام القائم (عليه السلام) سيقرأ بهذه الطريقة، أما الآن فاقرأوا كما عُلّمتم، أو قال (عليه السلام): ويأتيكم من يعلمكم.

ويحمله الكثيرون على معنى الاختلاف في القراءات وهي اختلافات في حركات الكلمات في الغالب بين القراء الذين اجتهدوا في عصر متأخر عن عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بسبب أن الكتابة في المصحف الشريف لم تكن محركة إلا بعد فترة طويلة فسمح ذلك للقراء بالاجتهاد والاختلاف في قراءة بعض كلمات القرآن ضمن محتملاتها اللغوية والمعنوية المفهومة لديهم، وتقدم الحديث عنها.

ويؤيد المطلب الأول كذلك ما روي عن الكافي عن سفيان بن السمط قال: (سألت أبا عبد الله (عليه السلام): عن تنزيل القرآن قال: اقرؤوا كما علمتم). إذ يحتمل أنه سئل عن ترتيب القرآن كما أنزل بأي معنى محتمل للترتيب المتقدم، ويرويها البعض (ترتيل القرآن) بدل (تنزيل).

والرواية التالية أوضح في الغرض وأصرح في البيان رواها المجلسي عن الإرشاد بسنده عن جابر (الجعفي)، عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: (إذا قام قائم آل محمد عليهم السلام ضرب فساطيط لمن يعلم الناس القرآن على ما أنزل الله جل جلاله، فأصعب ما يكون على من حفظ اليوم لأنه يخالف فيه التأليف)[1].

ويحتمل أن تكون مخالفة التأليف أو تغييره (عجل الله فرجه) في عهده المبارك لأن الناس يكونون من الوعي بحيث يمكنهم ربط معاني الآيات رغم اختلافها في ترتيبها في السورة أو في سور مختلفة واكتشاف المعاني المعمقة، ولم يسمح الأئمة (عليهم السلام) للواعين في ذلك الزمان بهذا الربط لعدم فتح الباب لطرح نصوص مؤلفة من القرآن الكريم من جمع آيات من مواضع مختلفة، إلا ما نشاهده مما هو موجود في بعض أدعيتهم وأحرازهم (عليهم السلام) التي تجمع فيها آيات من سور مختلفة في نص واحد، ومع ذلك يفهم القارئ منها أنها ليست على سبيل تكوين سورة جديدة.

ولكن نص الحديث يشير إلى صعوبة في القراءة على من حفظ القرآن مسبقاً وهي إذا حملناها على ظاهرها –ولا مانع

(١) بحار الأنوار: ٣٣٩/٥٢.

منه- أي الاختلاف في ترتيب التلاوة والآيات ليس فقط في ربط المعاني بين الآيات البعيدة عن بعضها.

ويحتمل أن المقصود نفسه في الأحاديث التي تصف الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف أنه يبايع بأمر جديد وكتاب جديد .. وما روي أن أمير المؤمنين (عليه السلام) جاء بنسخة كتبها للقرآن الكريم كما أنزل وأن الصحابة ردّوها ولم يقبلوها لما شاهدوه فيها من معاني تفضح عدداً من المهاجرين والأنصار، إذ لعل المراد بها أن مصحفه (عليه السلام) كان مرتباً بطريقة تُفهم منها هذه الأمور وليس المقصود أن ذلك الكتاب كان يتضمن شيئاً زائداً على القرآن، ولا يعني ذلك أنه (عليه السلام) رتّبه من تلقاء نفسه رغم عصمته (سلام الله عليهم) بل إنه عمل بوصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في الحديث عن أبي رافع (أن النبي قال في مرضه الذي توفي فيه لعلي: يا علي هذا كتاب الله خذه إليك، فجمعه علي في ثوب فمضى إلى منزله فلما قبض النبي صلى الله عليه وآله جلس علي عليه السلام فألفه كما أنزله الله وكان به عالماً).

وقد يُعترض على أطروحة المرونة في تغيير التأليف بمعارضتها لظاهر قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ**

لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس:١٥).

ويجاب عنها أن المقصود بالتبديل هنا قد يحتمل به معنى الإتيان بقرآن آخر، بالإضافة إلى ما تقدم أن عملية التبديل لو جرت على يديه الكريمتين فهي بوحي الله تعالى وأمره، وكذلك إذا جرت العملية على يدي الأئمة من أهل بيته (سلام الله عليهم) فأمرهم ينتهي إلى أمره (صلوات الله عليهم أجمعين).

وقد يعترض على هذه الأطروحة بما ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الدر المنثور: (قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً إذ شخص بصره فقال - أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان إلى قوله تذكرون﴾، ورواه أيضاً في مجمع البيان بلفظ قريب.

والحديث يدل على أن عملية الترتيب كان ينزل بها جبرائيل (عليه السلام) على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا الحديث لا ينفي الأطروحة، لأن أطروحتنا لا تدعي أن النبي (صلى الله عليه وآله) تصرف بتغيير ترتيب جميع الآيات الآيات، بل جملة من الآيات ذات الترتيب الحساس كما تقدم، وهو فعل منه (صلى الله عليه وآله وسلم) بأمر الله تعالى أيضاً.

بل قد يكون هذه الرواية مؤيدة للأطروحة، لمن تأمل.

هل القرآن الكريم قابل لتغيير الترتيب بين آياته أو سوره بغير ما هو معهود، بأكثر من أسلوب؟.

هل الممكن أن يعاد ترتيب الآيات الشريفة بغير الترتيب المعهود حين نشاهد ارتباطاً بينها؟ وهل تقبل الآيات الشريفة مثل ذلك؟ وكم تُغير الإعادة في المعنى؟

ما تقدم من حديث الإمام (عليه السلام) الذي نهى فيه صاحبه عن القراءة بتلك التلاوة حتى ظهور القائم: يعني أنه من غير المسموح لعامة الناس ذلك.

إذا فهمنا من قراءة ذلك الشخص أنها مخالفة في ترتيب الآيات عما هو المعهود، ولكن النهي سيكون خاصاً بالتلاوة، أما إذا أردنا البحث في موضوع معين مثلاً فلا مانع من ربط الآيات مع بعضها على نحو البحث والتفكير بالمشتركات في ما بينها، كأن نبحث عن مفردة التقوى فنجمع الآيات في موضع واحد ونتفكر بها.

ولصاحب الميزان (قدس سره) طريقة جيدة في ربط الآيات الشريفة ببعضها البعض لتفسير معناها، وما يقوم به كثير من الكتاب في جمع الآيات بحسب الموضوع لبحث ذلك الموضوع في ضوء القرآن الكريم مشابه لإعادة التأليف حول محور الموضوع المبحوث.

وكـل هـذه الأمثلـة وغيرهـا شـواهد لإمكـان الترتيـب المختلف بين الآيـات مـن أجـل اسـتخلاص نتـائج علميـة معينـة وليس في ذلك انتقاص للمصحف الشريف. وهـذا المقدار يكفـي في إثبات أصل الأطروحة، مع إمكـان أن تكـون هنـاك مسـتويات من التأليف أدق منها وأقوى وكل منها يحتاج إلى حجته اللازمة.

ونحن نتحدث الآن عن القابلية على إعادة الترتيب بغـض النظر عن حجيتها، وقد تقدم نهي الإمام (عليه السلام) عـن نـوع من التلاوة بغير المألوف.

ولا يمكن لأي كان أن يطرح ترتيباً معيناً ثم يُـدّعي أنـه هـو الترتيـب الـصحيح للمـصحف، وقـد مـرت بـك المناقشة في وجـه أطروحة المرونة في الترتيب وهل أن ذلـك مـن صـلاحيات رسـول الله (صلى الله عليه وآله) أو المعصومين من بعده.

هل يوجد لحن في القرآن الكريم ولأي غرض، وما هـي شـروط العدول عن ظاهر القرآن إلى المعنى الملحون؟

طريقـة التوريـة واللحـن[1] أو الكنايـة موجـودة في كـلام الفـصحاء وهـي تعنـي التحـدث بعبـارات ذات بـاطن يختلـف عـن

(١) يقول الراغب في المفردات في مادة (لحن): (اللحن: صرف الكـلام عـن سـننه الجـاري عليـه؛ إمـا بإزالـة الإعـراب، أو التـصحيف وهـو المـذموم وذلـك أكثـر اسـتعمالاً، وإمـا بإزالتـه عـن التـصريح وصـرفه بمعنـاه إلى

الظاهر في شيء بحيث يفهمه البعض على نحو معين، ويتضمن الكلام قرائن تجعل من يلتفت إليها يلتفت إلى معنى آخر. وهو جاري في التورية عند الاضطرار وأشباهه.

ويحكى أن الشاعر المهلهل لما كبر سنّه كان يتجول مع عبدين له يحملانه ويعتنيان به في أسفاره، فسَئِما منه وفكّرا في قتله، فعرف ذلك منهما فأخبرهما أنه يحس باقتراب موته وأنه يريد أن يحملا له وصيته إلى ابنتيه وهي بيت من الشعر، فحفظاه، ثم إنهما قتلاه ودفناه، وذهبا إلى أهله، فسألتاهما بنتا المهلهل عما أوصى به أبوهما؟، فقالا أنه قال:

ألا أيها البنتان إن أباكما ... لله درّكما ودرُّ أبيكما

فقالتا للحاضرين أمسِكاهما فإنهما هما من قتل أبانا، فقالوا لهما وكيف عرفتما ذلك؟ قالتا: إن أبانا لم يكن ضعيف الشعر، وإنما أراد:

ألا أيها البنتان إن أباكما ... قتيلٌ خُذا بالثأر ممن أتاكما
لله درّكما ودرُّ أبيكما ... لا يبرح العبدان حتى يُقتلا

تعريض وفحوى، وهو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة، وإياه قصد الشاعر بقوله: (وخيرُ الحديث ما كان لحنا) وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِي لَحْنِ القَوْلِ**﴾ ومنه قيل للفطن بما يقتضي فحوى الكلام: لَحِنٌ، وفي الحديث: (لعل بعضهم ألحنُ بحجته من بعض) أي: ألسنُ وأفصحُ وأبين كلاماً وأقدر على الحجة).

وما يذكر من القصة المعروفة عن الحطيئة أنه حين هجا الزبرقان بن بدر شاعر تميم، وكان الإسلام حرّم الهجاء فاستعمل الحطيئة كلاماً ظاهره الثناء وباطنه الذم، ولكن القرائن التي يعرفها الشعراء تجعل خصمه الزبرقان يعرفها دون أن يعرفها عمر بن الخطاب الذي اشتكى عنده الزبرقان، فقال له عمر: وماذا قال فيك؟ قال الزبرقان: قال:

والله ما معشرٌ لاموا امرءاً جنباً

في آل لأيٍ بن شمّاسٍ بأكياسِ

وذكر القصيدة. فقال عمر: ما أرى هجاءً ولكنه مدح.

فقال الزبرقان: إنه ليس صنعتك، ولكن ابعث إلى حسان بن ثابت فاسأله، فلما سئل عمر حساناً: هل هجاه الحطيئة بهذا الكلام؟ فاستمع حسان للشعر حتى وصل إلى قول الحطيئة:

دع المكـارم لا ترحل لبُغيتها

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

قال: بل سلح عليه، ما أحب أن يكون فيَّ هذا الكلام ولو كان لي حمر النعم.

ويوجد في جنوب العراق طريقة في الكلام العامي يُعرفُ بها الناس هناك ولها فنون وآداب(1).

وقد ورد استعمال اللحن في كلام المعصومين (عليهم السلام) كثيراً إذ يلاحظ على كثير من النصوص التي حُملت على التقية أنها تتضمن قرائن تستثير المتلقي ليحتمل مخالفتها للظاهر البسيط. وورد عنهم (عليهم السلام) : (إنا لا نعد الرجل من شيعتنا فقيهاً حتى يُلحن له فيعرف اللحن) وقالوا: (إنا لا نعد الرجل فقيهاً عالماً حتى يعرف لحن القول وهو قول الله عز وجل:

---

(1) تعرف بطريقة (الحسجة) بالجيم العامية، وتعني الحَسَكَة وهي ثمرة نبات كروية الشكل شوكية مثل القنفذ تلتصق بالثياب وبأصواف وأشعار الحيوانات وكلما أزيلت من شيء تمسكت بالشيء الذي يزيلها، ووجه تشبيه الكلام بها أنَّ لِما يتكلم به المتحدث لوازم في غير ظاهر الكلام يعرفها المتلقي من قرائن الحديث، ويحكى أن أحد الموظفين الحكوميين الغرباء في مدينة الشطرة جنوبي العراق في العهود السابقة كان يعجبه هذا النمط من الكلام فكان يستدعي أحد كبار السن في المدينة ليعلمه مقاصد الناس وكناياتهم على طريقة الحسجة، وفي أحد الأيام جلب أحد كبار السن من السوق وأغلظ له في الكلام اختباراً، وكان يقول له يا حمار باللهجة الشعبية، فكان الرجل المسكين يقول له: لا أعتب عليك فأنت أبي، وحين انصرف سأل مرافقه هل استخدم الرجل الحسكة؟ فاشترط عليه أن لا يعاقب الرجل إن علم وجه التورية في كلامه، فعاهده على ذلك، فقال له: أنه كان يقصد أنك أبوه وأبو الحمار حمار أيضاً. وأمثال هذه القصة كثير هناك.

﴿وَلَتَعرِفنَّهم في لَحنِ القَولِ﴾ لأنهم (عليهم السلام) ابتلوا كثيراً بالسلطة وفقهائها في كثير من أزمنتهم، بل واضطروا كذلك لكتم كثير من علومهم حتى عن بعض شيعتهم، قال الإمام زين العابدين (عليه السلام) في الشعر المنسوب إليه:

يا رُبَّ جوهرِ علمٍ لو أبوحُ به لقيل لي أنت ممن يعبد الصنما
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي يرون أقبحَ ما يأتونه حَسنا

ولكن لا يمكننا أن نحمل كل كلام على التورية واللحن، لأن الأمور ستكون فوضى حينها، بل لا تزال حجية ظواهر النصوص الشريفة على حالها، أما البواطن فهي مرتبطة بالظواهر كما قدمنا، ولا بد أن تكون هناك قرائن كافية للتفكير في باطن الكلام، وفهم اللحن فيه، وتلك القرائن مثل:

(١) أن يكون الموضوع مهماً وخطيراً ومما تتوفر فيه دواعي التورية أو اللحن. وهذا المقدار يحدد احتمالية أن يكون للكلام وجه غير الظاهر منه ولا يحدد معناه.

(٢) أن يصرح المتكلم في كلام آخر أن قصده من كلامه معنى آخر لا ينطبق على الظاهر من الكلام، فيسعى المتكلم إلى الجمع بين ظاهر النص وباطنه؛ لأنه يُجل المتكلم عن التناقض في أقواله.

(٣) أن يكون في كلامه عدم ربط أو تشويش في سياقه، فيحسن المتلقي الظن به ويجلّه عن التشويش ويعلم أن

هـذه إشـارة في كلامـه وأن ثمـة شـيء بخلاف الظـاهر، كما مرّ في قصة بنتي المهلهل.

(٤) أن يتـضمن الكـلام ارتباطـاً بعـضه بـبعض بحيـث لا يستطيع من ينظر إلى كل جزء منه على انفراد أن يفهم المطلوب، فلا بد أن يكون له قـدرة للنظر إلى الجزئين من الكلام معاً ليكتشف المراد كاملاً، مثل من يكـون عنده خارطة تتضمن جـزءاً واحـداً مـن الطريـق، فهـو ينتظر أن يعثر على الجزء الثاني الـذي يكمـل الخارطـة لديـه فيهتـدي إلى طريقـه، وتـدخل فيهـا فكـرة المعاقـد التي قدمنا لها في بعض كتاباتنا السابقة[١].

(٥) أن يشير المتكلم إلى القارئ أن يتأمـل في كلامـه لحمله على مزيد مـن الجهـد العقلـي ويـشير إليـه بـأن الكـلام يحتمل ما هو فوق الظاهر.

وسيأتي أن سورة محمد تتضمن كل تلـك الـدواعي لحمـل الكـلام علـى اللحـن، والعبـور خلـف الظـاهر إلى البـاطن، بـلا إسقاط لحجية الظاهر.

(١) راجع كتاب (سـورة الواقعـة ومحبـة الله) وكتـاب (الـذكر في سـورة صـاد المباركة).

فكرة المعاقد وقرائن التفسير

المعاقد هي ارتباط لفظي أو موضوعي بين موضعين من آيات السورة بحيث تكون إحداهما قرينة لفهم المراد من الآية الأخرى، مثل ما قدمنا في كتاب (الذكر في سورة صاد المباركة) من ارتباط الآية ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ**﴾ (ص:٢١) والآيات بعدها، بالآية (٦٩) من نفس السورة: ﴿**مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾ واستفدنا عدة معاني لفهم الآية الثانية من قصة الآية الأولى ونزهنا ساحة الملأ الأعلى من الخصومات الدنيئة وقدمنا أطروحة لفهم مضمون ذلك التخاصم.

وسيأتي بعض تطبيقات المعاقد في سورة محمد بإذن الله تعالى.

وهناك قرائن أخرى للتفسير والمساعدة على المطلوب، منها حسن الظن بالله تعالى، وبكلامه العزيز، فأحياناً حينما يكون هناك مطلبان للآيات الشريفة أحدهما أقل من الآخر، فحسن ظننا يقتضي أن نحمل المعنى على أشرف المعنيين فيما لو كانا متنافيين أو متفاضلين.

أو أن يكون أحد المعنيين يؤدي إلى أن تكون معاني جميع آيات السورة مترابطة والمعنى الآخر يجعل المعاني مفككة، فبالرغم من أن ذلك ممكن –أي أن تكون للسورة عدة أغراض بحكم ما

قدمنا من تعدد مناسبات النزول- إلا أن المعنى الأول سيكون أفضل إذا كان عرفياً ومقبولاً ومنسجماً لأن الكلام ذا السياق الواحد أفضل من الكلام المتشتت، وإنما نقبل احتمالية كون السورة وآياتها المتسلسلة ذات مواضيع متعددة كاحتمال يبطل الاستدلال الذي يهدف إلى الطعن في بلاغة القرآن حين يقول القائل: (إن في القرآن تفككاً في تعابيره) فنقول له: (إن ذلك يحتمل بسبب أن الآيات نزلت متفرقة) والاحتمال يبطل الاستدلال، وربما يكون التنظيم الأفضل ليس بين عناصر نظام السورة نفسها، بل بين مجموعة ونظام أكبر من العناصر يدخل فيها التأريخ والمجتمع والمكان والزمان.

وثواب السورة الذي يذكره المعصومون (عليهم السلام) يصلح أن يكون قرينة لفهم محور السورة ومعاني كثيرة من باطنها لم تكن لتُفهم لولا تلك الإشارة من المعصومين (سلام الله عليهم)، فنفهم من نوع الثواب المرتبط بالسورة أو الحديث الذي يبين محور السورة كثيراً من معانيها، كما يأتي بإذن الله تعالى وما يصلح أن يكون مرجّحاً لبعض المعاني المهمة.

ومن القرائن ما ذُكر من أن القرآن نزل ثلثه في أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة (عليهم السلام) أو نصفه أو كله فيهم (سلام الله عليهم) فهو مرجح لاختيار المعنى الملائم مع ذلك، كما تقدم من معاني أسمائهم النورانية.

وهناك قرائن ومعاقد من أنواع أخر لا مجال للتفصيل فيها، وقد اخترنا منها ما يناسب غرض هذا الكتاب ومحدوديته.

معنى قوله تعالى: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (الحجر:٩).

استدلوا بهذه الآية الشريفة على حفظ القرآن الكريم من التحريف فرغم أن لمفردة الذكر عدة استعمالات في القرآن الكريم إلا أن المقصود هنا على الأرجح هو القرآن بالذات بقرينة ما قبله في نفس السورة الكريمة من قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ** (أي: الذين كفروا) **يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ (الحجر:٦) فهم (الكافرين) يعنون القرآن الكريم. وقوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ (النحل:٤٤) .

وعليه فالقرآن الكريم محفوظ من التحريف بهذا الوعد الإلهي. والقرآن ذِكرٌ، لأنه يذكّر بالله تعالى وباليوم الآخر.

والواقع يشهد بذلك لأن نص القرآن الكريم وحجته قد وصلا إلى جميع الأجيال بالتواتر الذي لا يقارن به تواتر آخر واتفقت الأجيال على نقله والحفاظ على نسخه، سواء كان الأمر بالطريق الإعجازي أو الأسباب الظاهرية (الطبيعية).

ونودّ في هذا المختصر أن نمر على هذا الفهم للحفظ؛ لأن وضوح المعنى ومقبوليته لدى الجميع ربما يكونا قد منعا من

مناقشة هذا الاستدلال، ولكن النتيجة قد تكون صحيحة والاستدلال خاطئ، فالطريقة العلمية تحتم علينا أن نصحح الاستدلال بالآية الشريفة بعد اعترافنا بحفظ القرآن من التحريف وبقاء حجته على مر الأجيال: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (فصلت:٤٢).

وقد يناقش في المسألة من حيث أن القرآن الكريم محفوظ من حيث هو ذكر، ولا مانع من تصور أنواع من التحريف الدقيق من التحريف مثلما ورد في القراءات السبع فالبعض يقرأ قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ..**﴾ (الرعد:١١) هكذا: ﴿**له معاقيب**﴾ والبعض يقرأ قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ (محمد:٤) يقرأها: ﴿**وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ**﴾ ومثل هذه الاختلافات والعشرات غيرها لا يضر بحجية القرآن ولا بذكره، وتبقى هناك قرائن كافية لمعرفة الحقيقة، والبعض يقرأ في آية الوضوء ﴿**فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ**﴾ (المائدة:٦) كما هو مثبت في المصحف، والبعض يقرأها ﴿**وَأَرْجُلِكُمْ**﴾ بالكسر لا بالفتح فيستنتج الأول أن القدمين تغسل عطفاً على الوجوه والأيدي بحسب فهمه، والثاني يستنتج أنها تمسح عطفاً على الرؤوس كما هو وارد عن الأئمة (عليهم السلام).

هذا ونحن نؤمن أن القرآن الكريم واحد نزل من عند الواحد وأن الاختلاف إنما جاء من قبل اجتهادات القراء أنفسهم[1].

ومثل هذه التغييرات البسيطة لا تضر بالذكر الذي جاء به القرآن الكريم ونزل به، ولا تعتبر تحريفاً يبطل حجية القرآن الكريم.

ووصف القرآن بالذكر تارة يكون لأنه هو بنفسه ذكر، وتارة يكون بمعنى أنه ذو ذكر قال تعالى: ﴿**ص وَالقُرآنِ ذِي الذِكْرِ**﴾ (ص:١)، وأياً كانت معاني الذكر المحتملة[2] لإضافتها للقرآن الكريم أو وصف به فهو محفوظ بحفظ الله تبارك وتعالى.

وما حصل من اختلافات في القراءات أو ترقيم الآيات وفواصلها وغير ذلك لا يضر بحجيته ولا يناقض حفظه.

وفي نفس السورة معقد يرجح معنىً مناسب للحفظ الذي تعهد به الحق سبحانه للذكر القرآني إذ يقول سبحانه بعد بضعة آيات من آية الحفظ في نفس السورة: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا للنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ، إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ**﴾ (الحجر: ١٦-١٨).

---

(١) راجع كتاب البيان في تفسير القرآن، فصل القراءات.

(٢) راجع كتاب (الذكر في سورة صاد المباركة).

فحفظ السماء من الشياطين ليس لتفادي تخريبها على أيديهم أو سرقة نجومها، بل حفظها من استراق السمع لما يدور فيها، أو أن يدعي أحدهم الوصول إلى هناك والمجيء بشيء منها، ومثل هذا الحفظ يكون للقرآن الكريم، أي أن لا يتصرف أحد الشياطين أو الكفرة بإبطال حجته أو الوصول إلى معانيه الشامخة أو التقاط شيء من تلك المعاني لإضلال الناس بها.

ولا شك أن تغيير النص فيه إبطال للحجة فيكون الحفظ داخلاً في حفظ النص، لكن كما قلنا ليس على نحو الحفاظ على نفس الحركات والسكنات والفواصل وغيرها.

وهو معنى محتمل يبطل الاستدلال المقابل على كل حال، ونحن في غنىً عنه بعد أن علمنا أن ما بين دفتي هذا المصحف الشريف هو بنفسه ما أنزل على النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يزيد آية ولا ينقص آية.

فجميع تلك التصرفات لا تخالف الحفظ الموعود به، ولتكن، قابلية إعادة التأليف –بشرطها وشروطها– منها.

هل إن تغير ترتيب الآيات من التحريف المخالف للحفظ؟

تقدم أن هذا ليس من التحريف، فبحسب الأطروحة الأولى لجمع القرآن كان هناك احتمالان وهما: أن يكون جامعو القرآن الأوائل على علم بالترتيب الذي كان يقرأ به رسول الله

(صلى الله عليه وآله وسلم) فيكونوا قد وضعوا كل آية مكانها، أو أن لا يكون للترتيب مغزى وإنما المهم أن تجمع نصوص الآيات فإن لم يذكروا موضعها من أي سورة كما كان يقرأها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اجتهدوا في وضعها بأي موضع يرونه مناسباً وهم بالتأكيد -بحسب تلك الأطروحة- لا يرون أن هذا من التحريف. ولكننا قدمنا أنها أطروحة ضعيفة بالجملة، وأن أغراض الروايات التي ذكرتها لا تخفى على الفطِن.

وفي ضوء الأطروحة الإمامية من أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي جمع بين الآيات ا لشريفة، وأنه ربما غيّر في الترتيب التأريخي للنزول أو أن هناك ترتيباً آخر سيوضح معاني أعمق للقرآن الكريم حتى ولو كان هذا الترتيب صحيحاً لا يكون هذا تحريفاً أيضاً لأنه سيكون الترتيب الحالي حجة والترتيب التالي حجة كذلك.

هل ينبغي أن تكون لكل سورة وحدة عضوية أو موضوعاً واحداً أو مواضيع مرتبطة ببعضها.

تقدم أن من الممكن أن يكون لظاهر القرآن الكريم عدة مواضيع مختلفة بحسب الموضوع لأن القرآن الكريم نزل نجوماً بحسب الحوادث، ولكننا إذا عُرض علينا معنيان للنص القرآني كلاهما محتملان فيكون المعنى الذي يجعل السورة ذات سياق

واحد ووحدة موضوعية واحدة هو الأرجح، وهذه إحدى القرائن في الترجيح التي ترفع كفة بعض المعاني وقد لا تصل إلى درجة إسقاط المعاني المحتملة الأخرى.

سورة محمد وما ورد عن الأئمة (عليهم السلام) من تفسيرها بالولاية

والآن نخصص البحث في السورة التي عنونّا الكتاب بها ولتطبيق ما تقدم من بحوث عليها بإذن الله تعالى.

وقد تقدم أن هناك رؤيتين في تركيب السورة عند النظر إلى مواضيعها، إحداهما ترى التنوع في مطالب السورة من ذكر الكافرين والمنافقين والجهاد والإنفاق وغيرها، والأخرى ترى أن موضوعها واحد وأن الكافرين فيها هم كفار النفاق الذين كفروا برفضهم ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) التي ورد بها التنزيل يوم الغدير وغيره قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة:٦٧).

أما آيات الجهاد والقتال التي جعلوها قرائن على أن المراد بذكر الكافرين الذي سبقها: هم مشركو مكة فيمكن المناقشة فيها بأنه أمر غير صحيح، لأن الجهاد قد يكون ضد المنافقين أيضاً قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ..**﴾

(التوبة:٧٣)، والحرب كذلك قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ (البقرة: ٢٧٨-٢٧٩).

وحتى لو كانت هناك آيات في موضوع آخر غير الولاية فهناك قرائن تدل على وجود تورية أو لحن في الكلام يساعد على حملها على المعنى الآخر، وسيأتي جملة منها، بل يمكن الحدس أن السورة الكريمة تتضمن من قرائن الحمل على التورية ما لا تتضمنه سورة أخرى.

وقد ورد عن الأئمة (عليهم السلام) تفسيرها جملةً بشأن الولاية فعن مجمع البيان عن الإمام الصادق (عليه السلام): (قال: من أراد أن يعرف حالنا، وحال أعدائنا، فليقرأ سورة محمد فإنه يراها آية فينا، وآية فيهم) وروي أيضاً: (آية فينا وآية في بني أمية).

فالإمام (عليه السلام) يشير إلى أن السورة بأجمعها مقسمة بينهم وبين عدوهم، وقد نرى بعض الآيات خارج هذا التقسيم إلا أنها ضئيلة جداً لا تضر بمعنى الحديث عرفاً، ويمكن إدراجه في مقاصد التورية بسهولة كما تقدم.

نعم قد يقال بأن مشركي مكة هم أيضاً من أعداء أهل البيت (عليهم السلام)، وبالتالي فهناك موضوعان مختلفان على

الأقل وهما مشركو مكة ومنافقو المدينة وكلاهما من أعداء أهل البيت (عليهم السلام).

لكن يجاب عنه بأن بعض الأحاديث فسرتهم بأنهم بنو أمية، والمقصود بهم حكامهم منهم الذين تولوا زمام حكم الأمة الإسلامية كما هو الظاهر من الأحاديث، والتي صدرت في عهد الإمام الصادق (عليه السلام) ولو كانت في مشركي بني أمية فلا وجه للتأكيد على قراءة السورة بعد انقطاع شوكتهم ولا معنى لحفظها لدين القارئ بعد ذلك الوقت.

وسيأتي ما ورد عنهم (عليهم السلام) من الروايات في شأن الآيات التي تفسر الكفار المذكورين في السورة بكفار النفاق.

ثم إن من قرأ التأريخ بتمعن يعلم خطر فتنة بني أمية الشجرة الملعونة في القرآن، ويدرك أهمية ما أخبر عنه أمير المؤمنين (عليه السلام): (ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بنى أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة عمت خطتها، وخصّت بليتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمى عنها. وأيم الله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدى كالناب الضروس، تعذم بفيها، وتخبط بيدها، وتزبن برجلها، وتمنع درّها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم، أو غير ضائر بهم.. ليس فيها منار هدى، ولا عَلَمٌ يرى، نحن أهل البيت منها بمنجاة،

ولسنا فيها بِدُعاة، ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم، بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم بكأس مُصَبَّرة لا يعطيهم إلا السيف، ولا يُحْلِسُهم إلا الخوف).

ولبني أمية الدور الأخطر في التأريخ الإسلامي قبل فتح مكة من التحريض على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وجمع الجيوش، ثم بعد الفتح في إثارة الدسائس والدخول في شؤون حكومة أبي بكر وعمر حتى تمكنوا من نشر ولاتهم في زمان عمر ثم عثمان على أوسع وجه، (يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع). ثم ما فعله معاوية من فتنة مقتل عثمان وتمرده على أمير المؤمنين (عليه السلام) وتحريضه أهل الجمل على الخروج، ثم حربه في صفين، وما جرى مع الحسن (عليه السلام) وواقعة الطف الأليمة وغيرها، وما فعله حكام بني أمية بالأئمة (عليهم السلام) وشيعتهم.

هذا وإن كل من جرى بسيرتهم فهو من بني أمية كما ورد عن الأئمة (عليهم السلام): (إن مولى القوم منهم) و(إن من أحب قوماً حُشر معهم ومن أحب عمل قومٍ أشرك في عملهم).

مصاديق الآيات هل مترتبة عرضاً أم طولياً؟

قال بعض المفسرين: إن المعنى الأصلي للآيات التي ذكرت الكفار هو في شأن الكفار أما ما ذكره الأئمة المعصومون

(عليهم السلام) في أنها نازلة في من نصب العداء لأهل البيت فهو من باب المصداق، أي أنهم يرون أن الآية قد تنزل في حق قوم ويكونون هم المقصودين في المعنى المباشر لكلماتها، ولكن يمكن انطباق معناها على كل من يشترك مع أولئك القوم في الصفات التي أوجبت نزول الآية فيهم مدحاً أو ذماً، ففي سورة محمد المباركة ذُكر الكفار الذين كفروا بما أنزل من حقائق الإسلام الكبرى فاستوجبوا أن تنزل فيهم بعض الأحكام فهم المصداق الأول للآية الشريفة، والذين أنكروا ما أنزل على النبي في أمير المؤمنين (عليه السلام) عناداً وحسداً تشملهم نفس الأحكام لاشتراكهم في نفس الصفة فهم المصداق الثاني لها؛ لأن القرآن كما في الحديث الشريف (حي لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما يجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا).

وقول أولئك المفسرين صحيح كبروياً ولكن من حيث الصغرى يمكن الاستفادة منه في توسيع المصاديق الأولى عرضياً لا طولياً، فيمكن تطبيقه على الكفار الذين يكفرون بما أنزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في كل زمان، أو تطبيقه على جميع أعداء أهل البيت (عليهم السلام) من الحكام الظلمة الذين ظلموا الإمام الحسين (عليه السلام) والذين ظلموا الإمامين العسكريين (عليهما السلام) مثلاً.

فإننا قدمنا أن ولايتهم (عليهم السلام) في طول جميع العبادات وأنها سبب لجميع النيات الصالحة والذكر الإلهي ومن أنوارهم تكون روح العبادات الشرعية جميعاً؛ لأن الله تعالى خلقهم أنواراً فجعلهم بعرشه محدقين، وأن لهم وجوداً في طول جميع الكائنات وعلاقة أزلية بها، وإن عداوة الدين والتنكر للرسل في كل زمان إنما هو مصداق من مصاديق عدائهم لا أن يكون الأمر بالعكس، فتأمل.

نعم في مناسبة النزول تكون الآية نازلة في حق الكفار أو في وجوههم، وهو المحمل الذي يمكن حمل مفسرينا الكرام عليه، ولكن النزول الحقيقي للآيات الكريمة يكون في معنى ولاية أهل البيت والموقف منها، وبهذا سيكون هناك تطبيق عريض للولاية مما يسمح لنا بفهم كثير مما ورد عنهم عليهم في شأنهم وعظمتهم في القرآن من تفاسير ينكرها الجاهلون، ويقبلها الذين يحسنون الظن بالله وبرسوله وبأهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) حتى يحصل انسجام لها في قلوبهم ويسلموا تسليماً.

ما هو محور سورة محمد ومناسبات النزول؟

محور السورة الرئيسي كما تقدم هو ولاية أهل البيت (عليهم السلام) وأعداؤهم الذين ناصبوهم العداء وتآمروا ضدهم.

والسورة نزلت جملة واحدة في المدينة وما ورد عن ابن عباس أن آية منها وهي ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ**﴾ (الآية:١٣) مكية فقط: غريب ومرسل في أحسن الأحوال، ولا يضر بوحدة موضوع السورة وفق ما تقدم من محتملات الكناية أو المصاديق. وقد ورد عنه في الجزء السادس من الدر المنثور أنها نزلت بالمدينة، والمفسرون كما تقدم يقبلون مثل هذه التفرقة في التنزيل.

أما ما ذكر من كون السورة نزلت بعد بدر فإنما هو استنتاج من بعض مفسري العامة لأنهم فسروا قوله تعالى في صدر السورة الشريفة: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ (الآية الأولى) بأنهم قادة قريش الذين ذبحوا الإبل لإطعام جيش المشركين يوم بدر، فكأنما هي أعمال حسنة في الظاهر تدل على الكرم ولكنها غير مقبولة لأنهم مشركون أرادوا به الرفعة والرياء.

ولكن يبعده ضعف الخبر ووضوح أنه حدس من المفسرين لا خبر ولو كان خبراً لذكروا سنده، ويبعده كذلك أن تلك الأعمال (أعمال المشركين التي أضلها الله) في الأساس غير منظور إليها في الاعتبارات القرآنية والدينية حتى تضل أو تحبط كما سيأتي. وما جرت عليه الخطابات والمفاهيم الشرعية أن الكافرين لا ينظر بأعمالهم أصلاً لأن عقائدهم منحرفة، وإنما من

ينظر بأعمالهم: المسلمون الذين قبلوا الميزان الديني فتحبط الأعمال أو تُجبر أو تقبل.

كما أن هناك مقابلة وقرائن ومعاقد ستأتي بإذن الله تفسر بوضوح من هم أولئك المشركين وما هي صفتهم.

وعن تفسير القمي قال: (نزلت في أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين ارتدوا بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وغصبوا أهل بيته حقهم وصدوا عن أمير المؤمنين وعن ولاية الأئمة (عليهم السلام)، أضل أعمالهم أي أبطل ما كان تقدم منهم مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الجهاد والنصرة).

وعن الباقر (عليه السلام) قال: (قال أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المسجد والناس مجتمعون بصوت عال: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ فقال له ابن عباس: يا أبا الحسن لِمَ قلت ما قلت؟ قال: قرأتُ شيئاً من القرآن، قال: لقد قلتَه لأمر؟ قال: نعم إن الله يقول في كتابه ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ فتشهد على رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه استخلف أبا بكر؟ قال: ما سمعتُ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أوصى إلا إليك، قال: فهلا بايعتني؟ ..).

وقد يقال بأن الذين ارتدوا حصل ذلك منهم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكيف يكون القرآن نازلاً في حقهم على رسول الله وهم لم يرتدوا بعد[1]؟

فيجاب هذا الإشكال بما تقدم من تقريب الفكرة في الآيات الأخيرة من سورة البقرة ﴿**آمَنَ الرَسُولُ..**﴾، وكيف أنها نزلت ليلة المعراج وحصل موقف المسلمين وهدايتهم وتسليمهم لرسول الله في معناها بعد الهجرة.

ويجاب كذلك بأنهم ارتدوا قبل وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعملوا أعمالاً كثيرة للتمهيد لما بعده، ووصف القرآن تعاقدهم على ذلك قبل خطبة الوداع وبعد ما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مسجد الخيف في حق أمير (عليه السلام) ما يشبه قوله في غدير خم فتآمروا على الغدر والارتداد وتعاقدوا عليه في الكعبة فأنزل الله تعالى: ﴿**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ، أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ (الزخرف:٧٩-٨٠).

ولكنهم رغم سماعهم ذلك كانوا يزدادون عناداً وتحدياً لله تعالى والمغرورون منهم كانوا يظنون أنه (صلى الله عليه وآله

---

(١) من المعروف النظر إلى كثير من قضايا القرآن الكريم على نحو القضايا الحقيقية فمن الممكن أن نجدها تتحدث عن المستقبل بصيغة الماضي.

وسلم) ساحر أما كبراؤهم فكان لسان حالهم مقالة إبليس في العناد والحسد والتكبر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٦٢).

وسيأتيك بإذن الله تعالى معنى قول أتباعهم لهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾.

شواهد اللحن ومعاقد السورة المباركة

السورة المباركة تذكر الكفار في أكثر من موقع من آياتها مما يجعل وحدة السورة الكريمة محل الشك حين يلاحظ القارئ تعدد الموضوعات بين الكفار تارة والمنافقين تارة أخرى وبشكل متناوب قد يستثير استغراب عامة القراء الذين تعودوا على إطلاق مصطلح الكفار على منكري أصل الرسالة الإسلامية، ومصطلح المنافقين على الجبهة الداخلية المعادية المتنكرة في داخل الوسط الإسلامي، أو الذين كانوا يناصبون العداء لأمير المؤمنين (عليه السلام) حتى كان المنافق يُعرف ببغضه لعلي (عليه السلام) لأنه كان يتستر أمام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحسن الظاهر ويظهر العداء والنصب لأمير المؤمنين (عليه السلام) دون تحرج.

ولكن قد تقدم أن من يتعرف على العمق العقائدي للإسلام وكلمات أهل البيت لا يبعد عليه حمل الكفار في كثير من الآيات على منكري الولاية.

والكفر بحسب أحاديث أئمتنا (عليهم السلام) على أنواع، والكفر الأول الذي هو الكفر بالرسالة هو الذي يستوجب الخروج عن ذمة الإسلام وإجراء الأحكام المذكورة عليه والحدود اللازمة، أما سائر أنواع الكفر فلم يرد في ظاهر الشريعة بيان حكم قتالهم بحسب ما نفهمه.

ففي الكافي بسنده عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه. فمنها كفر الجحود، والجحود على وجهين، والكفر بترك ما أمر الله؛ وكفر البراءة، وكفر النعم. فأما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية وهو قول من يقول: لا رب ولا جنة ولا نار وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم: الدهرية وهم الذين يقولون ﴿**وَمَا يُهلِكُنَا إلا الدَهْرُ**﴾ وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان على غير تثبّت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون، قال الله عز وجل: ﴿**إنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ**﴾ أن ذلك كما يقولون وقال: ﴿**إنَّ الذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيهِمْ أَأَنْذَرتَهُم أمْ لَمْ تُنذِرهُم لا يُؤمِنُونَ**﴾ يعني بتوحيد الله تعالى فهذا أحد وجوه الكفر.

وأما الوجه الآخر من الجحود على معرفة وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق، قد استقر عنده وقد قال الله عز وجل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاستَيقَنَتْهَا أنفُسُهُم ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ وقال الله عز وجل: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبلُ يَستَفتِحُونَ عَلَى الذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثالث من الكفر كفر النعم وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان (عليه السلام): ﴿هَذَا مِنْ فَضلِ رَبِّي لِيَبلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإنَّمَا يَشكُرُ لِنَفسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُركُم وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكفُرُونِ﴾.

والوجه الرابع من الكفر ترك ما أمر الله عز وجل به وهو قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُم لا تَسفكُونَ دِمَاءَكُم وَلا تُخرِجُونَ أَنفُسَكُم مِنْ دِيَارِكُم ثُم أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُم تَشهَدُونَ ، ثُمْ أَنتُم هَؤُلاءِ تَقتُلُونَ أنفُسَكُم وَتُخرِجُونَ فَرِيقاً مِنكُم مِن دِيَارِهِم تَظَاهَرُونَ عَلَيهِم بِالإثمِ وَالعُدوَانِ وَإنْ يَأتُوكُم أُسَارَى تُفَادُوهُم وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُم إخرَاجهُم أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعضِ الكِتَابِ وَتكفُرُونَ بِبَعضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنكُم﴾ فكفرهم بترك ما أمر الله عز وجل به ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده

فقال: ﴿**فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفعَلُ ذَلِكَ مِنكُم إلا خِزيٌ فِي الحَيَاةِ الدُنيَا وَيَومَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعمَلُونَ**﴾.

والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة وذلك قوله عز وجل يحكي قول إبراهيم (عليه السلام): ﴿**كَفَرنَا بِكُم وَبَدَا بَينَنَا وَبَينَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤمِنُوا بِاللهِ وَحدَهُ**﴾ يعني تبرأنا منكم، وقال يذكر إبليس وتبرئته من أوليائه من الإنس يوم القيامة: ﴿**إنِّي كَفَرتُ بِمَا أشْرَكتُمُونِي مِنْ قَبلُ**﴾ وقال: ﴿**إنَّمَا اتخَذْتُم مِنْ دُونِ اللهِ أوْثَاناً مَوَدَّةَ بَينِكُم فِي الحَيَاةِ الدُنيَا ثُمَّ يَومَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعضُكُم بِبَعضٍ وَيَلْعَنُ بَعضُكُم بَعْضاً**﴾ يعني يتبرأ بعضكم من بعض).

فالكفر في ضوء هذا الحديث له عدة معاني ولا بد لترجيح معنى منها من عقد قرينة كافية لفهم المعنى، والحقيقة أن جميع أنواع الكفر تتعلق بأعداء الولاية لأن الأئمة (عليهم السلام) هو أبواب التوحيد وأركان الإيمان ومعادن المعرفة وخزائن علم الله ونعمة الله السابغة في طول كل نعمة.

إلى هنا أمكننا التوفيق بين الفهمين المختلفين للكفر، إلا أننا –مع ذلك- سنخطو نحو اختلافين في مصداق ﴿**الذين كفروا ... بما نزّل على محمد..**﴾ فهل هم مشركو مكة أو منافقو المدينة، فمن قال أنها في مشركي مكة سيحمل معنى ﴿**الذِينَ كَفَرُوا**﴾ في

السورة الشريفة على من جحد أصل الإسلام من مشركي مكة والعرب آل فلان وآل فلان، ويتخذ عدة قرائن مثل ذكر الحرب والقتال وغيرها، وقد ناقشنا تلك القرائن في ما تقدم.

ومن حملها على كفر جحود الولاية فهو يحمل المعنى المقصود على أنه فلان وفلان.

وأمام هذا الاختلاف الجديد في المصداق الخارجي بإمكاننا أن نقول أن السورة تتحدث عن أمور عامة وقضايا حقيقية كما يعبرون، وتحذر من جميع الكافرين الذي كفروا بجميع ما نُزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

إلا أننا مع قبولنا بأصل عمومية المعاني القرآنية[١] سنصرّ هذه المرة على اتجاهنا أن السورة نزلت في حق فئة خاصة من المجتمع الإسلامي وأن السورة تذكر أفعالاً قاموا بها فعلاً في الأيام الأخيرة من حياة النبي (صلى الله عليه وآله) ستترك آثارها إلى يوم القيامة، عملاً منا بقوله تعالى: ﴿**فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ**﴾ إن كان لهذه الآية تطبيق هنا.

فلن نقبل بهذه التعميم هنا، بل سننتقل إلى مستوى جديد من البحث بأن نتحرى عن مؤيدات لحمل التعابير المذكورة ذات

---

(١) قد تقدم الرأي في تصور كيف تتعدد المصاديق، فلينعكس ذلك الرأي على مناقشة معنى القضايا الحقيقية.

المعنى العام (مثل الكفر، والحرب) على محمل الكناية والتورية واللحن، فنحتمل أن هناك لحناً في السورة الشريفة لتنبيه أذهان قراء القرآن للمعنى المهم المقصود فليلتفت إليه طالب الحقيقة مع قليل من التأمل، وقلنا إن احتمال اللحن له شروط ودواعي من الممكن أن نجد جملة منها في هذه السورة الشريفة، منها:

(١) أن أهل البيت صرّحوا أن هذه السورة آية فيهم وآية في عدوهم، ومعرفة سيرتهم الشريفة ومغازي كلماتهم تجعل الموالي لهم ينتظر أن تتناول السورة قضيتهم الرئيسية وهو أمر إمامتهم والحجة عليها وما نازعهم القوم عليه منها.

أما حمل معاني الآيات على مشركي مكة وكيف أن الله أبطل أعمال الذين ذبحوا الإبل يوم بدر منهم: يجعل للآيات معاني بعيدة عن الفضل الذي ذكر لقراءة هذه السورة وربطها بولايتهم (سلام الله عليهم).

وقد قلنا إن المتكلم حينما يتكلم بكلام، ثم يشير في موضع آخر إلى أن كلامه كان يعني به قصداً معيناً، فحينما نأتي إلى كلامه الأول ونجد أنه استخدم مصطلحاً ظاهره غير ظاهر القصد الأول، نحمل كلامه حينئذٍ على الكناية، وأهل البيت (عليهم

السلام) حين أخبرونا أن مقاصد هذه السورة في ولايتهم، وهم يخبرون عن جدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الذي ﴿**مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ (النجم: ٣-٤) وهم (عليهم السلام) ورثته، ثم إننا نجد مصطلحاً مشتركاً بين كفار الرسالة وكفار الولاية، فمن الواضح أننا سنحمل المعنى على ما ينسجم مع كلام أهل البيت (سلام الله عليهم) بلا مؤونة زائدة.

وقد أكد أهل البيت (عليهم السلام) على هذه السورة بذكر الثواب الجزيل لقارئها ومنها ما تقدم من حديث أبي بصير الذي تكرر معناه عن أكثر من إمام سلام الله عليهم: أن (من قرأ سورة ﴿**الذين كفروا**﴾ لم يرتَبْ أبداً ولم يدخله شك في دينه أبداً ولم يبله (أو يبتله) الله بفقر أبداً ولا خوف من سلطان أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشك والكفر أبداً حتى يموت، فإذا مات وكّل الله به في قبره ألف ملك يصلّون في قبره ويكون ثواب صلاتهم له ويشيعونه حتى يوقفونه موقف الأمن عند الله عز وجل ويكون في أمان الله وأمان محمد صلى الله عليه وآله)، ورغم أننا نعتقد أن آيات القرآن الكريم وسوره الشريفة كلها

ذات ثواب عظيم وكلها ذات ارتباط بمعاني عظيمة من شؤون الدين، ولكنها لم يرد فيها مثل هذا الثواب أو مشابه له إلا في موارد قليلة، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في الخبر يقرأ هذه السورة في صلاة المغرب جماعةً في فترة من حياته الشريفة في المدينة، ولعله (صلى الله عليه وآله وسلم) فعل ذلك إلى أيام وفاته روحي الفداء لثراه الطاهر.

(٢) إن موضوع السورة الشريفة مهم وهو ولايتهم وفضائح أعدائهم ومؤامراتهم ضد أهل البيت (عليهم السلام)، وطرح هذه المواضيع (بالخط العريض) سيؤدي إلى استنفار أعداء أهل البيت لفعل أي شيء لإخفاء الحق حتى لو تطلب تحريف نص القرآن الكريم، وأهمية الموضوع -كما تقدم- تجعل احتمال وجود دواعي للتورية والكناية واللحن أكثر، والتفات النابهين إليها أدعى.

(٣) إن السورة الشريفة دعت إلى التدبر في القرآن وبخت عليه بشدة ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ وقد قلنا أن المتكلم حينما يريد من المتلقي أن يتأمل في عمق كلامه دون أن يضطر لتبسيطه وتوضيحه للجميع فإنه بهذا يشير له لكي يلتفت

بفطنته نحو مطالب خفية في كلام المتكلم، وتلك المطالب قد تكون مطالب عامة معمقة كما هو حال آيات القرآن الكريم جميعاً أو مطالب خاصة ذات موضوع خطير.

(٤) إن السورة الشريفة قد تضمنت إشارة عرضية إلى اللحن قال تعالى: ﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾، حتى أن الشخص غير المتنبه إلى أمر اللحن سيتنبه بهذه الإشارة إلى احتمال اللحن، أما لو قيل بأن اللحن في الآية الشريفة لا يراد منه الكناية والتورية بل معنى آخر كما سيأتي فليس المقصود طريقة الكناية حتى يتبادر منها للمتلقي احتمال الكناية في كلام الله تعالى، فيقال في جوابه: إننا سنناقش عند التطرق لشرح الآية الشريفة تلك المعاني المحتملة وسنجد بإذن الله تعالى أن الظاهر فيها هو الكناية أيضاً، ولكن مع تلك المحتملات لمعاني كلمة اللحن مما فهمه بعض المفسرين: فإن مجرد التشابه اللفظي بين معنيي اللحن سيؤدي إلى نفس التبادر كما هي سجية الذهن البشري الذي قد يربط بين الأشياء في ذهنه تارة بحسب الموضوع وتارة بحسب اللفظ أو غير ذلك، ومثل هذا الترابط منظور إليه في فنون الشعر والبلاغة

العربيــة ومــا يعــرف بالجنــاس اللفظــي، ويحكــى أن هارون العباسي سأل أحد وزرائه عن الخيزران: ما هذه؟، فقال الوزير: هي أعواد الرماح، فتجنب أن يقول لفظ الخيزران؛ لأن أم هارون اسمها أو كنيتها الخيزران.

ومـع كـل مـا تقـدم توجـد قـرائن كـثيرة بعـضها تأريخيـة وبعضها من أفعال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تؤيد أن المقصود بآيات السورة الشريفة هو التنبيه إلى الفتنة التي اشتعلت بعد رحيل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبدأت في أيامه الأخيرة.

كما وتشهد معاقد السورة على عدة أمور نافعة تجعل المتأمل فيها ينتبه ويستظهر هذا المعنى الخطير من نفس آيات السورة مع قليل من الجهد والتأمل في مجموع السورة والربط بين الآيات:

منها: قوله تعالى في مفتتح السورة: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ ثم قال عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾، والظاهر من الآيتين أن المراد منهما المقابلة فالآية الثانية تشير إلى فئة المؤمنين الذين آمنوا

وعملوا الصالحات أي الإيمان بالقضايا الدينية العامة ثم آمنوا بالأمر الذي نزّل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو شيء خاص ومهم[1] أنزل لا عموم ما أنزل الله تعالى عليه (صلى الله عليه وآله وسلم)، والمقابلة مع الكفار ترجح أن المقصود منهم الذين كفروا بهذا الشيء الذي أنزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد تكرر التأكيد على هذا المعنى في آيات أخرى في السورة الشريفة وكأنما هي لتأكيد أن ثمة شيء خطير أنزل وهو فيصل في الناس يصنَّف جاحدوه على أنهم كافرون ومصدقوه على أنهم مؤمنون، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ (الآية:٨) فقد كرر الحق سبحانه نفس كلمات الآية الأولى تقريباً ولا يحتمل أن يكون هذا مقطعاً منفصلاً ومطلباً آخر غير مما شرعت به السورة في بدايتها، ثم أعقبها الحق سبحانه ببيان سبب إضلال أعمالهم بقوله عز من قائل: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ (الآية:٩) وليس مقصوده مشركي مكة والعرب الذي جحدوا أصل الرسالة المحمدية لا أنهم (كرهوا) فحواها فحسب.

---

(١) خصوصاً مع التأكيد عليه بقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِم**﴾.

وقد فهم منها ابن عباس شيئاً خاصاً طبقه على بعض الانحرافات النفسية التي تجعل المرء يعترض على الاختيار الإلهي ويكرهه فتحبط أعماله حتى ولو كان مسلماً في الظاهر حين قال له الخليفة الثاني: إن قريش كرهت أن تجمع لكم النبوة والخلافة فتجفخون علينا جفخاً (أي تتيهون وتتكبرون)، فاختارت لنفسها ووُفقت –حين اختار بعض رجال قريش غير أمير المؤمنين لخلافة الناس–، فقال ابن عباس: إن قريش لو اختارت ما اختاره الله لها لأصابت ووفقت، ولكن الله تعالى وصف قوماً بأنهم ﴿**كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**﴾[1].

ثم يكرر الحق سبحانه ذكر ما أنزل حين يذكر شأن فئة من الناس بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ**﴾ (الآية:٢٥) فالآية تذكر هذه الفئة وتصفهم بأنهم ارتدوا على أدبارهم، ووصفهم سبحانه بوصف خطير أخرجهم من عنوان الدين، ووصف خروجهم بأنه بتسويل من الشيطان وإملاء لهم، ثم يبين سبحانه سبب ارتدادهم وأنه ليس هو تركهم لجميع الدين أو عنوان الإسلام والإيمان بالوحدانية والرسالة كما هو المألوف من وصف

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٢٢٣/٤، أحداث سنة (٢٣)، وكذلك الكامل في التأريخ لابن الأثير: ٦٣/٣ ـ٦٥.

المرء بالارتداد، ولكنه تركهم لجزء من الدين أو بعض من الالتزامات وذلك بدعوةٍ من زعماء الفتنة قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ**﴾ (الآية:٢٦) فهي بوضوح تبين أن ثمة وسوسة ومؤامرة سرية أدارها الذين كرهوا ما أنزل الله وأن بعض الناس وافقوهم في جزء منها وأطاعوهم في بعض الأمر كما قالوا.

ومن الواضح أنهم طلبوا طاعتهم في شيءٍ ما، وللذهن الحر أن يتساءل عن ماهية ذلك الشيء الذي يستوجب أن يطلب البعض من الناس أن يطيعوهم فيه في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ مع أن المفروض أن يردوا كل شيء إلى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله).

وتذكر السورة كذلك قوماً من المسلمين وتخبر أنهم سيتولون في الأرض وأنهم سيفسدون فيها ويقطعوا أرحامهم: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ فمن كان يخطط للتولي على الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويفكر بالإفساد؟.

وفي السورة الشريفة معاقد كثيرة تتعلق بالارتداد وأنه موجب لحبط الأعمال أو إضلال الأعمال، وتهديد الله تعالى للمتولين باستبدالهم بقومٍ غيرهم لا يكونون أمثالهم، فما الذي

يستوجب سقوط طبقة من المسلمين عايشت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واشتركت معه في كثير من أعماله ما الذي استوجب سقوطها من عين السماء نهائياً لو كان ذلك البعض من الأمر شيئاً غير مهم.

ولم تأت أي من الاتجاهات الإسلامية ومفسريها بشيء ينسجم مع هذه الرؤية إلا مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) التي جعلت الولاية شيئاً جوهرياً يمثل قلب الإسلام وقلب الدين، وهو الولاية التي مر الحديث بشأنها في ما تقدم.

والفهم المنسجم لهذه السورة الشريفة والذي نقدمه كأطروحة أكثر انسجاماً مما لو تناولناها كمواضيع متقطعة، رغم أنها نزلت جملة واحدة على ما هو المشهور من المفسرين:

الفهم المنسجم: أن السورة تخبرنا أن مجموعة من الناس رفضوا ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) التي أنزلها الله تعالى على نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمره بتبليغها للناس بعد تحسّب وتحذر منه (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة:٦٧).

وأن ذلك الرفض أوجب إحباط أعمالهم الدينية الأخرى وأنهم ارتدوا بهذا الموقف عن الدين.

وأنهم تآمروا على انتزاع ولاية أمر الناس دون أهل البيت (عليهم السلام) والإفساد في الأرض وصد الناس عن سبيل الله الخاص الذي عرضه عليهم يوم الغدير.

وأن الله سبحانه سيستبدل بالمقصرين من الأمة الذين تهاونوا بطاعتهم لأولئك المفسدين قوماً غيرهم لا يكونون أمثالهم بل سيؤمنون بما أنزل الله في فضل أمير المؤمنين (عليه السلام).

وربما تضمنت السورة أمراً للمؤمنين بقتال أولئك المرتدين أو المتآمرين حرباً لا هوادة لها لو وجد الأنصار عليهم.

وتهددهم السورة الشريفة بقدوم الساعة وظهور أشراطها، وأن مصير الكافرين إلى النار حيث يسقون حميماً يقطع أمعاءهم، أما المؤمنون فسيكفر الله لهم ذنوبهم بفضل ولاية أهل البيت (عليهم السلام) ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة التي بين الله تعالى لهم صفاتها وشؤونها.

وقد فضحت السورة المؤامرة لمن يعقل وبينت أن من المسلمين من هو مقصر وضعيف الإيمان بحيث لو أُمر بالإنفاق أكثر لافتضحت أضغانه، لكي لا تحسن الأجيال القادمة الظن بهذا الجيل المتخاذل الناكل عن نصرة الحق.

وبينت أن من المجتمع المسلم من كان يبطن الكفر والمرض والضغن لأمير المؤمنين (عليه السلام) وأن لو يشاء الله لعرّفهم وشهّر بهم ولكن من الممكن للمؤمن أن يعرفهم بسيماهم، ومن

الممكن أن يتعرف عليهم إذا تدبر في القرآن حق التدبر وفهم كناياته تلك الكنايات التي لا بد منها لتصل الحقيقة إلى المؤمنين أولي الألباب فقط ويحجب نورها عن سائر الناس المقصرين.

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أيامه الأخيرة يقرأ هذه السورة في صلاة المغرب الجهورية تنبيهاً للأمة من المتآمرين وتحذيراً لمن اتفقوا معه على المؤامرة وتهديداً للمرتدين بالحرب وبالمؤمنين الموعودين الذين سيستبدل الله بهم المقصرين من الناس، دون أن يكون كل ذلك بـ(الخط العريض) والتصريح الواضع لئلا يؤدي ذلك إلى انتفاضهم حتى على رسول الله (صلى الله عليه وآله) واستئصال أصل الإسلام، ومن المؤكد أنهم كانوا محيطين به (صلى الله عليه وآله) ينتظرون كل حركة منه ومن الناس، ويعدون العدة لتنفيذ خطتهم، وفي السورة ما يشير إلى أنهم كانوا إذا صدر من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث في فضل أهل بيته (عليهم السلام) أظهروا أنهم لم يفهموا المطلوب وشككوا الناس فيه، فكان للكناية ضرورة بالغة لتفهيم المؤمنين وإيقاظهم إلى الأمر الخطير دون أن تؤدي إلى استفزاز المرتدين واستعجالهم.

الأحاديث الشريفة في تفسير السورة المباركة.

ورد عن أئمة الحق (عليهم السلام) أحاديث كثيرة في تفسير آيات السورة المباركة، وحملها بعض المفسرين على باب تعدد المصداق، فيما أعرض آخرون عنها لضعف أسانيد بعضها، ولكنها بمجموعها يعضد بعضها بعضها في الإشارة إلى أن محور السورة وسبب النزول الرئيسي والمصداق الأول هو ما دار في أمر الولاية والمؤامرة التي حصلت بشأنها من قبل المرتدين الذين نبه الله تعالى لأمرهم في آيات من سور أخرى مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ..**﴾ (آل عمران:١٤٤)، ويعضدها جميعاً ما تقدم منا من تحليل الآيات ودلالتها على تلك الأمور الخطيرة بشكل يجعل في نفس متن الحديث تأييداً لصحة صدوره لانسجامه مع ما استظهرناه من المعنى.

وسنستعرض تلك الروايات بإذن الله تعالى عند الحديث عن معاني الآيات بالتفصيل. أما الآن فسنذكر ما جاء في كتاب كنز جامع الفوائد[1] اختصاراً لتتبع الأحاديث وهي منتشرة في كثير من التفاسير وكتب الأحاديث الشريفة:

---

(١) قال الطهراني في الذريعة: ((تلخيص تأويل الآيات) اسمه (كنز جامع الفوائد) أو (كنز الفوائد ودافع المعاند).. للمولى كمال الدين حسين بن خواجة عبد الحق الإلهي الأردبيلي المتوفى (٩٥٠).. وهو مختصر

فعن الإمام الكاظم (عليه السلام) أنه قال: من أراد فضلنا على عدونا فليقرأ هذه السورة التي يذكر فيها: ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله**﴾ فينا آية وفيهم آية إلى آخرها.

وعن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنه قال: قوله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله**﴾ في علي عليه السلام ﴿**فأحبط أعمالهم**﴾.

وعن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾ قال: نزلت في بني هاشم وبني أمية.

وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى**﴾ قال: الهدى هو سبيل علي عليه السلام.

ومنتخب من (تأويل الآيات الظاهرة) تأليف السيد شرف الدين على الأسترآبادي.. انتخبه منه الشيخ علم بن سيف بن منصور النجفي الحلي، قال في ديباجته: (وبعد فإني تصفحت كتاب (تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة) فرأيته قد احتوى على بعض تعظيم عترة النبي صلى الله عليه وآله أهل التفضيل في كتاب الله العزيز الجليل، فأحببت أن أنتخب منه كتاباً قليل الحجم كثير الغنم، وسميته بـ(جامع الفوائد. ودافع المعاند) وجعلت ذلك خالصاً لوجه الله تعالى).

وعن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نصب رسول الله صلى الله عليه وآله عليا عليه السلام يوم غدير خم قال قوم ما يألو يرفع ضبع ابن عمه، فأنزل الله تعالى: ﴿**أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم**﴾.

وعن الصادق (عليه السلام) قال: نزلت هذه الآية في بني عمنا بني العباس وبني أمية، ثم قرأ: ﴿**أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم**﴾ عن الدين ﴿**وأعمى أبصارهم**﴾ عن الوصي، ثم قرأ: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم**﴾ بعد ولاية علي ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم**﴾ ثم قرأ: ﴿**والذين اهتدوا**﴾ بولاية علي ﴿**زادهم هدى**﴾ حيث عرفهم الأئمة من بعده والقائم ﴿**وآتاهم تقواهم**﴾ أي ثواب تقواهم أماناً من النار، وقال عليه السلام وقوله عز وجل ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين**﴾ وهم علي صلوات الله عليه وأصحابُه ﴿**والمؤمنات**﴾ وهن خديجة وصويحباتها. وقال عليه السلام: وقوله: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد**﴾ في علي ﴿**وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم**﴾ ثم قال: ﴿**والذين كفروا**﴾ بولاية علي ﴿**يتمتعون**﴾ بدنياهم ﴿**ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم**﴾ ثم قال عليه السلام: ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون**﴾ وهم

آل محمد وأشياعهم. ثم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: أما قوله: ﴿**فيها أنهار**﴾ فالأنهار رجال، وقوله: ﴿**ماء غير آسن**﴾ فهو علي عليه السلام في الباطن، وقوله: ﴿**وأنهار من لبن لم يتغير طعمه**﴾ فإنه الإمام. وأما قوله: ﴿**وأنهار من خمر لذة للشاربين**﴾ فإنه علمهم يتلذذ منه شيعتهم، وأما قوله: ﴿**ومغفرة من ربهم**﴾ فإنها ولاية أمير المؤمنين، وأما قوله: ﴿**كمن هو خالد في النار**﴾ أي أن المتقِّين كمن هو خالد في ولاية عدو آل محمد و ولاية عدو آل محمد هي النار من دخلها فقد دخل النار؟ ثم أخبر سبحانه عنهم: ﴿**وسُقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم**﴾.

وسيأتي بإذن الله تعالى مزيد من الروايات في شرح الآيات.

إحباط أعمال المنكرين للولاية، وتكفير سيئات من أقر بها

تتحدث السورة الشريفة عن أمرين متقابلين:

(الأول): أن من أنكر ما أنزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من شأن الولاية حبط جميع عمله سواها، ﴿**أضَلَّ أعْمَالـهُم**﴾ ﴿**وَأَضَلَّ أعْمَالهم**﴾ ﴿**فَأحْبَطَ أعمَالَهُم**﴾ ﴿**يُخرِجَ اللهُ أضغَانَهم**﴾ ﴿**وَسَيُحبِطُ أعمَالَهُم**﴾ ﴿**وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾ ﴿**يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ**﴾.

(الثاني) إن من قبِل بما أُنزل في شأن الولاية يُكفّر الله عنه أعماله السيئة ﴿**كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾ ﴿**فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهدِهِم وَيُصلِحُ بَالَهُم**﴾ ﴿**زَادَهُم هُدًى**﴾ ﴿**وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾.

والظاهر أن هناك مستويين من الانقياد إلى الله تعالى الأول متعلق بالتسليم لما أمر الله والإيمان بما نزل قلبياً، والثاني هي الأعمال الصالحة. وإن الثاني مترتب على الأول وفي طوله فإذا قبل الله تعالى الأول من العبد تجاوز عن هفواته في المستوى الثاني، أما إذا تمرد الشخص على المستوى الأول فإن الله تعالى يحبط المستوى الثاني ولا يقبله.

فإن قبول أمر الولاية إنما ينشأ من الإيمان بالله تعالى والعبودية والتسليم لكل ما يأمر به والطاعة لمن ينصبه إماماً للناس، وهي تنم عن سلامة القلب، والعكس بالعكس أي أن رفض الولاية يدل على العناد والتمرد على الله تعالى.

وبالتالي فإن الصنف الأول الذي قبل الولاية حتى لو أذنب ذنباً وعمل سيئة فهي ليست من باب العناد والتمرد، بل لدوافع أخرى أهمها الجهل والضعف، فهم في حقيقتهم يملكون الاستعداد والقبول للترقي، فمثل هؤلاء يتجاوز الله عن سيئاتهم، لأن العبادات غايتها تحقيق سلامة القلب ﴿**إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء:٨٩).

أما الذين تمردوا على ما نزل الله في أمر الولاية فلا معنى لعباداتهم إلا الرياء والأغراض الدنيوية وربما الارتياح النفسي؛ لأنهم إذا كانوا يفعلون عباداتهم امتثالاً وعبودية لله تعالى فما معنى رفضهم لما لا يعجبهم من أمره سبحانه، وهؤلاء سيحبط الله أعمالهم، ويظهر أنها إنما أريد بها غير الله تعالى.

وقد جعل الله تعالى أهل البيت (عليهم السلام) في الأمة مثالاً للغاية التي ينشدها العبد وطريقاً مختصراً لهدفه وتجسيداً لأنواره العليا، فيتميز العبد المصدِّق من المكذب بموقفه منهم سلام الله عليهم.

ولتمثيل كيف يمكن أن يحبط العمل الذي ظاهره الصلاح بشيء قلبي وهو قبول ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) فنشبه له الأمر بالنية في العبادات، فإن الرياء يبطل العبادة كما هو معروف في كتب الفقه، ولا بد من إخلاص النية قبل العمل وإلا فإنه لا وزن له وكذلك هي الولاية، فتأمل.

وقد يرى البعض أن فئات من الصوفية مثلاً يمكن عدهم من الشيعة؛ لأنهم استضاؤوا بأنوار أهل البيت (سلام الله عليهم) في النفوس أو أسمائهم النورية في العالم حتى وإن لم يتبعوا إمامتهم ولم يعرفوا أسماءهم وإمامتهم الظاهرة أو يكون قد اتبع في الفقه غير مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، واعتبرهم البعض شيعة لأهل البيت (عليهم السلام) في الباطن في

موازاة شيعتهم في الظاهر وهم الذين اتبعوهم (سلام الله عليهم) واتبعوا فقهائهم، كما حاول البعض تبرير انحراف أولئك عن أهل البيت في الظاهر بأنهم لم يصلهم الحق والحجة الكاملة فهم مستضعفون من هذه الناحية، ولكن بجهادهم لأنفسهم وصلوا إلى الحجة في الباطن.

ونحن لا نعلم كيف ختم الله تعالى لهم قبل موتهم، ونعلم أن بعضهم صدر منه ما يفهم منه اعترافهم بالحق كالغزالي(١)

---

(١) قال الغزالي في كتاب (سر العالمين) في آخر حياته عند التعرض للأقوال في الخلافة: (لكن أسفرت الحجة وجهها، وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته في يوم غدير خم باتفاق الجميع وهو يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه، فقال عمر: بخٍ بخٍ يا أبا الحسن لقد أصبحت مولاي ومولى كل مولى، فهذا تسليمٌ ورضاً وتحكيم. ثم بعد هذا غلب الهوى بحب الرئاسة، وحَمْلُ عمود الخلافة، وعقود البنود، وخفقان الهوى، في قعقعة الرايات، واشتباك ازدحام الخيول، وفتح الأمصار، سقاهم كأس الهوى، فعادوا إلى الخلاف الأول، فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون. ولما مات رسول الله صلى الله عليه وآله قال وقت وفاته: إيتوني بدواة وبياض لأزيل عنكم إشكال الأمر، وأذكر لكم من المستحق لها بعدي! قال عمر: دعوا الرجل فإنه ليهجر وقيل ليهذر. فإذن بطل تعلقكم بتأويل النصوص، فعدتم إلى الإجماع، وهذا منقوض أيضاً فإن العباس وأولاده وعلياً عليه السلام وزوجته لم يحضروا حلقة البيعة وخالفكم أصحاب السقيفة في مبايعة الخزرجي..إلخ). يعني بالخزرجي سعد بن عبادة.

وابن عربي[1] وغيرهما، ولكن الاطلاع على الأنوار القدسية في بعض العوالم الغيبية لا يكفي العبد للقبول منه ما لم يقترن بالتسليم المطلق ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً**﴾ (النساء:٦٥) وقد يصل الإنسان إلى مستويات عالية من المعرفة ولكنه ينكرها ويهوي دونها –والعياذ بالله تعالى- كما أخبر النبي (صلى الله عليه وآله) في عدد من الروايات قال: يرد علي الحوض رجال من أصحابي أعرفهم ويعرفونني، ثم يخرج رجل بيني وبينهم فيذودهم عن الحوض، فأقول: أصحابي أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لا زالوا مرتدين على أعقابهم القهقرى، فأقول: إلى أين؟ فيقول: إلى النار، فأقول:

---

(١) قال ابن عربي في تفسيره عند تفسير سورة النبأ: (النبأ العظيم: هو القيامة الكبرى. ولذلك قيل في أمير المؤمنين علي عليه السلام: (هو النبأ العظيم وفُلك نوحٍ) أي الجمع والتفصيل باعتبار الحقيقة والشريعة؛ لكونه جامعاً لهما) الجزء ٧٥٥/٢، وقال في تفسير سورة (طه): (ويجوز أن يكون قسماً لا نداء –الحرفين طاء وهاء-، أي أقسم بالاسمين اللذين يرى بهما ربهما، ويتجلى بهما لك، لإفادة التزكية والتخلية.. ولهذا المعنى سمي آل محمد وآل طه، أي بحصول المعنيين لهم، وظهور الاسمين (الطاهر والهادي) فيهم) الجزء ٣٢/٢، وغيرها من الموارد.

سحقاً سحقاً، فلا ينجو منهم إلا مثل همل النعم (أي النعم التي تُهمل في القطيع الكبير إشارة إلى قلة الناجين منهم).

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦).

فالاطلاع على الأنوار القدسية والمعارف الغيبية يتطلب تصفية للنفس هناك أيضاً وتسليماً أشد مما هو معروف في عالم الظاهر والمعرفة وحدها لا تكفي للنجاة ما لم تقترن بالعمل والخضوع والعبودية، فإذا كان ذلك البعض من الصوفية أو غيرهم ممن اطلع على تلك الأنوار الغيبية وسلّم أمره لخالقه فلماذا لم يقبل بما تواتر من حجج الأئمة (عليهم السلام) ووراثتهم لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلافة أمر الأمة؟.

ولا نقول في المقابل أن شيعة أهل البيت (عليهم السلام) الذين يعملون الأعمال السيئة ويصرون عليها هم من أهل الجنة على ما فيهم، بل لا بد أن ننتظر بهم كيف سيختم الله تعالى لهم، إذ ربما تسلبهم الذنوب تلك الولاية الظاهرية قال تعالى: ﴿كَلا بَلْ

رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:١٤) وفي الحديث الشريف (كل مولود يولد على الفطرة، ثم أبواه يهودانه وينصرانه ويمجّسانه) وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨).

فنحن نرى من الناس ظاهرهم، فربما كان من ظاهره التشيع مناصباً في العاقبة أو السر، وربما كان من لا يعرفهم اليوم جاهلاً أو غافلاً بحقهم ولو عُرض عليه أمرهم غداً بوضوح لقبله وانسجم معه.

وقد سأل أحد أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) عن التبرؤ ممن لا يعرف هذا الأمر أمر الولاية، فنهاه (عليه السلام) عن التبرؤ من غير النواصب، وقال له إن كنتم تتبرؤون منهم لأنكم تعرفون من أمر الولاية ما لا يعرفون فإذن نحن نتبرأ منكم لأننا نعرف ما لا تعرفون، ولكن هم الضعفاء، من أمثال النساء والصبيان ﴿الذِينَ لا يَستَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهتَدُونَ سَبِيلاً﴾.

وكل عمل صالح يقوم به الإنسان مهما كان ظاهره يقربه من الحق إنما هو لمسة لطف من الله تعالى، أما ذنوبه فهي نتيجة خذلانه وسوء استحقاقه وتبعده عن الحق بمقدار سوئها.

ومما تقدم يتضح شيء من أمر الشفاعة التي يعترف بأصلها جميع المسلمين إلا من شذ من النواصب، فهي تعني تكفير السيئات والتجاوز عنها ارتكازاً على ما يتوفر عليه المرء من

عقد قلبي، وفي مقابلها إحباط الإعمال وإضلالها على ما هو متكرر في السورة الشريفة، أما على يدَي مَن ومن له حق الشفاعة فهو أمر سيّان لأن الشفعاء جميعاً إنما يشفعون بإذن الله وبرضاه **﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾** (البقرة:٢٥٥) **﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾** (الأنبياء:٢٨).

والشفعاء متفاوتون بحسب قربهم من الله تعالى وهدايتهم للناس في الدنيا، فالمعلم أو العالم مثلاً يشفع لمن تعلم منه بمقدار ما تعلمه منه، والمؤمن يشفع لمن قضى له حاجة، والعلماء يشفعون لمن أحبهم، ومن المؤكد أن أهل البيت (عليهم السلام) هم أعلى جميع الشفعاء هداية وفضلاً وتعليماً بل لا يمكن أن نتصور وقوفهم مع الناس في عرض واحد للتفاضل، بل إن كل حق إنما صدر منهم (عليهم السلام) (وإياب الخلق إليكم وحسابهم غداً عليكم).

شرح الآيات

بسم الله الرَحمَنِ الرَحِيمِ
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١)

فُسر الصد بمعنى الإعراض عن سبيل الله أو صد الآخرين عنه، وفُسر سبيل الله بأنه عموم الإسلام بقرينة آيات الجهاد، ولكننا عرفنا الإجابة عن ذلك في بعض المقدمات السابقة، فيحتمل أن سبيل الله هو مستوى الإيمان العالي الذي يضمن تطبيق كل ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وآله) من الله والإيمان به إيماناً كاملاً والإخلاص في التوحيد، أو ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) التي نزل بها الوحي.

وبنظرة إجمالية شاملة للسورة المباركة سنجد أن الصد تكرر فيها بقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّه وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾** (٣٢) مما يدل على أن الصد عن سبيل الله لم يكن بالصد عن عموم الإسلام بل لشيء نزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وثقل على المنافقين الامتثال له

فقاموا بالإعراض عنه أو صد الناس عنه، وأن أولئك الصادّين هم من داخل المجتمع الإسلامي.

وقوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ الضلال بمعنى التيه أو الاضمحلال والتلاشي.

فيكون المعنى كما عن صاحب الميزان (قدس سره): (أي جعل أعمالهم ضالة لا تهتدي إلى مقاصدها التي قصدت بها وهي (يعني مقاصد أعمالهم) بالجملة إبطال الحق وإحياء الباطل، فالجملة في معنى ما تكرر منه تعالى من قوله: ﴿وَاللهُ لا يَهدِي القَومَ الكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٦٤) فالمراد من إضلال أعمالهم بطلانها وفسادها دون الوصول إلى الغاية، وعدّ ذلك ضلالاً من الاستعارة بالكناية)[١].

وقد صرف (قدس سره) معنى الضلال عن ظاهره؛ لأن الأعمال لا يقال لها في الظاهر ضلت أو اهتدت وإنما الضلال والهداية للعاملين.

وهناك مجاز أقرب لاستعمال (أضل) مع الأعمال، وهي اختفاؤها عنهم وضياعها أو ضياع أجرها لأنها حبطت ويراد بهم الذين نافقوا فضاعت أعمالهم عنهم في الآخرة كما سيأتي من قوله تعالى: ﴿أَحبَطَ أَعمَالَهُم﴾.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن للسيد الطباطبائي (قدس سره): ١٨/ ٢٣١.

وفي اللغة يستعمل الضلال بمعنى الضياع والاختفاء قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (السجدة ١٠) أي إذا اضمحللنا بعد الموت في الأرض.

وفي تفسير القمي عن علي بن إبراهيم عن الإمام (عليه السلام) قال في هذه الآية: (نزلت في الذين ارتدوا بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وغصبوا أهل بيته حقهم وصدوا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) وعن ولاية الأئمة (عليهم السلام) أي أبطل ما كان تقدم منهم مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الجهاد والنصرة).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾(٢).

هذه الآية تفسر ضلال الذين كفروا المذكور في الآية السابقة بدليل العطف الذي يفهم منه المقابلة فأولئك كفروا بما نُزّل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهؤلاء آمنوا به، وهو ما يؤيد أن الكفر الذي تتحدث عنه الآيات الشريفة هو كفر المنافقين الذين أنكروا الولاية وليس كفر جحود الإسلام، وقد عرفت وجه الجمع بينهما في ما تقدم، فراجع.

فالآية الشريفة تدل على فئة من المسلمين وصفتهم أنهم ﴿**آمَنُوا**﴾ وهو أصل الإسلام أو جملته، و﴿**عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ النزول التطبيقي من الإيمان، و﴿**آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ وفيها دلالة واضحة أن هناك شيئاً مُهمّاً نزل على النبي (صلى الله عليه وآله) وكان معياراً لتمييز المجتمع المسلم، والنظر إلى تأريخ نزول الآيات وظروف نقل مناسبات الآيات وما سبق من أحاديث فضل تلاوة السورة يشير إلى أنها تتعلق بما نزل في حق أمير المؤمنين (عليه السلام) وأنها تتحدث عما دار بعد إعلان النبي (صلى الله عليه وآله) لولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم غدير خم أو قبله.

والمؤمنون في هذه الآية ﴿**كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾ كفرّ عنهم سيئاتهم: الكفر بمعنى التغطية ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً**﴾ (الحديد:٢٠) سمّى الزرّاع الذين يغطون البذر بالتراب بالكفار.

ومعنى تكفيره عز وجل عنهم الذنوب: ستر عنهم سيئاتهم بالعفو عنها والمغفرة أو منع تأثيرها على قلوبهم ونفوسهم؛ ولذلك عقّب عز وجل ذكر تكفير السيئات بإصلاح البال لأن السيئات تؤثر عليه قال تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (المطففين:١٤).

أو سد عنهم أبواب المعاصي التي تتأتى من ولاية الظالمين.

أو قد تكون بمعنى سترها عن الآخرين في الدنيا أو الآخرة. وهو احتمال ضعيف.

ويحتمل أن معنى تكفير السيئات: نفيها من الأصل بالطاعات وأنواع القربات والإيمان الصحيح والمراقبة الدائمة.

أما إصلاح البال فهو إصلاح الحال، وتطييب النفوس بالرضا والقناعة، وربما كان كناية عن أن كل ما سيمر بهم على طريق الولاية إنما هو لما فيه صلاحهم وخيرهم.

وقد تقدم أن أهل البيت (عليهم السلام) أنوار جوهرية في تكوين الأشياء فهم سلام الله عليهم الهوية النورية لكل فرد يسير بها في عالم النور ويهتدي بهم، ومن الطبيعي أن يتجاوز المتمسك بهم العقبات الكؤودة في عوالم الآخرة.

وفي تفسير القمي عن إسحاق بن عمار قال: (قال أبو عبد الله (عليه السلام): ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمد**﴾ في علي (عليه السلام) ﴿**وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم**﴾ هكذا نزلت).

وعنه عن علي بن إبراهيم عن الإمام (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ قال (عليه السلام): (نزلت في أبي ذر وسلمان وعمار ومقداد لم ينقضوا

العهد ﴿**وآمنوا بما نُزّل على محمد**﴾ أي ثبتوا على الولاية التي أنزلها الله ﴿**وهو الحق**﴾ يعني أمير المؤمنين (عليه السلام) ﴿**من ربّهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم**﴾ أي حالهم، ثم ذكر أعمالهم فقال: ﴿**ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل**﴾ وهم الذين اتبعوا أعداء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) ﴿**وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربّهم**﴾).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (٣)

في هذه الآيات تأييد للمقابلة بين كفر أولئك وإيمان هؤلاء. وقوله تعالى: ﴿**اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ يراد بالحق فيه ما نُزّل في الموضوع الخاص ﴿**بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ فالتكرار بين الآيتين وقربهما من بعض يقوي العهدية بينهما، وتقدم معنى الحق وأنه ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولقول النبي (صلى الله عليه وآله): (علي مع الحق والحق مع علي يدور معه أنى دار).

﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ**﴾ الأمثال التي تعلمهم وترشدهم، وربما كان في هذه الآية كناية عما سبق أو ما

سيأتي من الحديث عن الكافرين أو الحرب والجهاد ويكون المراد بكل ذلك ما يخص المنافقين وأعداء الولاية، أي أن الحديث يكون من باب المثال ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ**﴾ (العنكبوت:٤٣).

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٤).

لقيتم الذين كفروا: أي زحفاً، وضرب الرقاب هو القتل المؤكد، والإثخان هو الإثقال أي إذا أثخنتموهم قتلاً فشدوا الوثاق: أي الأسر أحكموه لئلا يفلتوا طالما أن الحرب قائمة، أما إذا وضعت أوزارها وأثقالها المادية والنفسية فأنتم بالخيار بين المن والفداء وهو بأمر ولي الأمر لا يجوز لكل مقاتل في الجيش أن يفعله.

وحمل بعض المفسرين الآية الشريفة على الجهاد في سبيل الله ضد الكفار من المشركين، وفسّروا ما قبلها من ذكر الكفار بالمشركين أيضاً، وهم يعلمون أن هذه الآيات نزلت جملة

واحدة، ولذلك حملوا ما ورد من الأحاديث الشريفة التي فسرت الآيات قبلها بالولاية بأنها من باب المصداق، وقد تقدم التعليق على هذا الحمل، مع أننا احتملنا أنهم الذين كفروا بشيء مهم كان له أثر عظيم على الأمة، واستنتجنا أنه ما نزل في حق أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير أو ما قبله.

وعن بعض علماء القرآن أنها آيتان تنتهي الأولى عند قوله تعالى: ﴿**أوزارها**﴾ والباقي آية منفصلة.

فتكون هذه الآية من أغرب الآيات التي لم يُعهد جمعها لعدة صيغ عجيبة ككثرة الحذوفات[1] فيها، ومنها اختلاف القسم الأول منها –إن كانت آيتين منفصلتين- عن أواخر سائر الآيات في السورة التي تنتهي بـ﴿**هُم**﴾ فهي تنتهي بـ﴿**هَا**﴾ وليس هناك آية أخرى مشابهة لها إلا قوله تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ وقوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا**

---

(١) مثل:

١- قوله تعالى: ﴿**فَإِذا لَقِيتُمُ .. فَضَرْبَ الرِّقَابِ**﴾ حذفت منها (فعليكم) أي فعليكم بضرب الرقاب أو (فقوموا بضرب رقابهم).

٢- وقوله تعالى: ﴿**..إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ**﴾ حذفت منها مثل ما تقدم.

٣- وقوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء**﴾ حذفت منها فحكم من أوثقتموهم منهم هو المن أو الفداء.

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

ورغم أنه من الممكن الإجابة على كل من هذه الاستغرابات على حدة[1] إلا أنها بمجموعها تحمل المستمع على التأمل.

فيُستشعر منها أن المراد من هذه الحرب هي الكناية واللحن وصرف الأذهان البليدة عن محور السورة مع ترك إشارة للنابهين لمعرفتها، أو تكون فيها إشارة إلى قتال المنافقين فتطلبت الكناية لعدم تنبيههم فيستعدوا للتحصن ضد المؤمنين أو ابتدائهم بالقتال قبل استعداد المؤمنين.

وفي تفسير القمي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن بعض أصحابه عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في سورة محمد: آية فينا وآية في أعدائنا والدليل على ذلك قوله: ﴿**كذلك يضرب الله للناس أمثالهم**﴾ وقوله: ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب**﴾ إلى قوله: ﴿**لانتصر منهم**﴾ فهذا السيف الذي على مشركي العجم من

(١) فيقال مثلاً: إن الحذف مألوف في القرآن الكريم، ولا مانع أن تختص آية من القرآن بصيغ بلاغية تختلف عن سواها طالما أنها صحيحة لغوياً وبلاغياً، وهناك آيات غيرها لها مميزات استثنائية فريدة.

الزنادقة ومن ليس معه كتاب من عبدة الكواكب، وقوله: ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب**﴾ والمخاطبة للجماعة والمعنى لرسول الله (صلى الله عليه وآله) والإمام بعده).

وفي كتاب الخصال عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (سأل رجلٌ أبي عليه السلام عن حروب أمير المؤمنين عليه السلام، وكان السائل من محبينا، فقال له أبي: إن الله تعالى بعث محمداً بخمسة أسياف ثلاثة منها شاهرة لا تغمد إلى أن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشمس من مغربها، إلى قوله: وسيف على مشركي العجم يعنى الترك و الخزر).

وفي هذا الحديث وذيل الحديث الذي قبله يظهر ما قلناه من أن تكليف الجهاد في السورة يدل على أمر بجهاد الكافرين بالولاية على يد أمير المؤمنين (عليه السلام) إن وجد أنصاراً، أو على يد الأئمة بعده وهو ما سيتحقق على يد القائم المنتظر (عجل الله فرجه)، و﴿**حتى تضع الحرب أوزارها**﴾ قيل لا يبقى دين غير الإسلام ولا تعبد الأوثان، وهذا كما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخرُ أمتي الدجال).

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (٥)

أي: الذين ﴿**قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ في لقاء الذين كفروا في الحرب قبل أن تضع أوزارها، وقُرِئَ: ﴿**قَاتَلُوا**﴾. وللآية معقد مع الآية الثانية وهو قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾ فيستشعر من الآية أن هؤلاء الذين سيقتلون هم الذين آمنوا بما نزل على محمد (صلى الله عليه وآله) وهي إشارة تؤيد حمل الحرب المقصودة في الآية التي قبلها على جهاد المنافقين أو الجهاد في عصر التأويل أو في آخر الزمان على يدي بقية الله عجل الله فرجه الشريف.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (٦)

عرّفها لهم: إما بمعنى جعلها معروفة لهم بما أنزل إليهم من صفتها على لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، أو التبشير بها على يدي أوليائه.

أو بمعنى العَرْف وهو الطيب أي طيّبها لهم، فيشموا عرفها وطيبها من طاعاتهم المقبولة وأعمالهم الصالحة.

وطيب الجنة يُشَم على مسيرة خمسمائة عام كما في الحديث الشريف، وفي الدعاء عند الاستنشاق في الوضوء: (اللهم لا تحرّم علي ريح الجنة، واجعلني ممن يشم ريحها وروحها

وريحانها)، وفي الأبيات الشعرية التي قالها جعفر الطيار[1] حين اشتبك مع الروم يوم مؤتة:

---

(١) وهو جعفر بن أبي طالب أعظم من أن يعرَّف هنا، أخو أمير المؤمنين (عليه السلام) من أمه وأبيه، يلقب بالطيار لقطع كلتا ذراعيه يوم مؤتة فأخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن الله أبدله بهما جناحين يطير بهما في الجنة. ويلقب بأبي المساكين، وبذي الهجرتين لأنه هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة. ولد في مكة المكرمة سنة (٣٤) قبل الهجرة، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، هاجر مع زوجته أسماء بنت عميس الخثعمية الهجرة الأولى إلى الحبشة. وهو أول سفير في الإسلام، وأول من حمل رسالة إلى ملك الحبشة. وقد أسلم على يديه ملك الحبشة النجاشي وعدد من أهلها، وعندما وقعت معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، وكان جعفر في الحبشة، فضرب رسول الله (صلى الله عليه وآله) بسهم له لمحبته له وإكرامه إياه.

وبقي جعفر في الحبشة أربعة عشر عاماً وهو أمير المهاجرين ومن أسلم من أهلها يعلّمهم فضائل الدين الحنيف ويدعو إلى الإسلام، وفي السنة السابعة للهجرة. عاد هو وأهله وجماعة من المسلمين على سفينتين إلى المدينة –وهم آخر من عاد من الحبشة– وقدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد فتح خيبر فاعتنقه (صلى الله عليه وآله) وقبّل ما بين عينيه، وقال: (والله لا أدري بأيهم أنا أُسَرّ، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر؟). وأنزله رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى جنب المسجد، وأهداه صلاة جعفر الطيار المعروفة بمناسبة مقدمه، وفي السنة الثامنة من الهجرة بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله) جيشاً إلى مؤتة –وهي قرية من قرى الشام، وتقع الآن في محافظة الكرك جنوب الأردن وقبره (عليه السلام) فيها– وكانت تلك المعركة تمهيداً حقيقياً لفتح بلاد الشام والاحتكاك بجيش الروم الذي كان قوامه (٢٠٠) ألف مقاتل، في حين كان جيش المسلمين على ما روي (٣٠٠٠) مقاتل، ومع كل ذلك فقد أثخنوهم حتى قيل إن هرقل ملك الروم –وكان حاضراً بنفسه– كان يفكر بالانسحاب، إلا أنه بعد مقتل قادة جيش المسلمين الثلاثة: جعفر وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة اختار المسلمون خالد بن الوليد فقام بسحب الجيش، ولقي من توبيخ المسلمين الكثير حين عاد بهم إلى المدينة.

يا حبـذا الجـنة واقـترابها   طيبةٌ وبارد شرابها

وفي تفسير القمي بسنده السابق عن الإمام (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿**ويدخلهم الجنة عرّفها لهم**﴾ قال: (أي وعدها إياهم وادخرها لهم).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧)

تنصروا الله: بالقتال على التنزيل مع النبي أو القتال على التأويل مع الإمام (عليه السلام)، والنصر لا يتوقف على القتال العسكري، بل يشمل كل نصرة للحق باليد واللسان والقلب.

ووصف جعفر الطيار بأنه نزل عن فرسه وقاتل راجلاً يوم مؤتة حتى قطعت يمينه وشماله فاعتضد اللواء بعضديه، ووجد فيما أقبل من جسمه بضعاً وتسعين جرحاً ما بين ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم.

ونعاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين دخل على زوجته أسماء بنت عميس فدعا ببني جعفر، فشمّهم، وذرفت عيناه، فقالت أسماء: يا رسول الله: أبلغك عن جعفر شيء؟ قال: نعم، قُتل اليوم، فقاموا يبكون جميعاً، ثم دخلت السيدة فاطمة وهي تبكي وتقول: واعماه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: على مثل جعفر فلتبكِ البواكي.. ورثاه عدد من الشعراء منهم حسان بن ثابت.

وكان جعفر من أحبَّ الناس إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) وأقربهم إلى قلبه، وكان يشبهه كثيراً، وفيه يقول: أما أنت يا جعفر فأشبهت خَلْقي وخُلقي، وأنت من عترتي التي أنا منها.

وتثبيت الأقدام: إشارة إلى التثبيت والرسوخ في مواجهة الكافرين، ربما لأن الخوف يجعل الأقدام متزلزلة فيثبتها الله تعالى لهم أو يثبت نفوسهم لئلا يفروا أو يزيغوا أو يرتعدوا ويضعفوا.

والله تعالى غني عن العالمين عزيز لا يتقوى بخلقه ولا عدو ينافسه ﴿**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**﴾ (الإسراء:٤٢)، ولكنه جعل نصرة أوليائه نصرةً له. ووعد أن ينصر من ينصره بالحجة والقوة في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ، يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ (غافر: ٥١-٥٢)، وقد روى الشيخ الصدوق في عيون الأخبار أن النصر هنا بالحجة، حيث لا يمكن لمعذرتهم وحججهم دحض حجة الله تعالى، ولا ينافي هذا غيره من النصر.

وقد يكون المراد بتثبيت الأقدام ما يعرف بالحفاظ على النصر بعد تحقيقه، فكثير من الانتصارات البشرية أعقبها هزائم أضاعت نتائجها، أما وعد الله تعالى لعباده المؤمنين بالنصر فيتلوه وعد بالتثبيت، وللآية الشريفة تطبيقات للنصر والتثبيت في ميدان جهاد النفس ذات معاني جليلة، ولعلماء الأخلاق تطبيقات كثيرة لآيات الجهاد في ميدان جهاد النفس حتى يبدو وكأن التطبيق في هذا المجال هو مناسبة النزول الأولى لآيات الجهاد، وقد قلنا في

كتابات سابقة[1] أن نفس معارك الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) كانت ذات طابع تربوي للمجاهدين وذات أبعاد معنوية قيمة لمن تأمل في أحداثها والآيات الواردة فيها.

وعالم النفوس عالم واسع والمعركة فيه هي الأهم وللعقل هناك جنوده وللجهل جنوده.

وعن تفسير القمي بسنده السابق عن الإمام (عليه السلام) قال: (ثم خاطب أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم**﴾).

ويستشعر من هذا الحديث أن الآية تتضمن الوعد من الله تعالى بنصرة أمير المؤمنين (عليه السلام) على أعدائه وضلال أعمالهم، أما نصرته فتكون بالإيمان والعمل الصالح والسعي لتعزيز الإيمان بالله في القلوب وترسيخ كلمة التوحيد.

وفي نهج البلاغة قال (عليه السلام): (وخذوا من أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها، فقد قال الله سبحانه: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ فلم يستنصركم من ذل وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم).

---

(١) راجع كتابي (قلوب المجاهدين) (مخطوط).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٨)

التعس هو: السقوط على الوجه، وصيغة الإطلاق ﴿**تعساً**﴾ مفادها الدعاء عليهم وهو من الله تعالى فعلٌ منه عز وجل في الدنيا أو الآخرة.

ولا يخفى ما لتكرار ذكر الذين كفروا هنا من ربط بما سبق.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٩)

توضيح لشأن تلك الفئة وتكرار للمعنى ﴿**أَضَلَّ أعمَالَهُم**﴾ وبيان سبب إحباط الأعمال، وهو أنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبطت أعمالهم الأخرى.

ويمكن فهم إحباط أعمال الكافرين بنفس فلسفة تكفير سيئات المؤمنين، لأن الأعمال بظاهرها غير ذات قيمة إذا لم تقترن بالعقائد السليمة.

وعن تفسير القمي عن الإمام (عليه السلام) قال: (فقال: ﴿**والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله**﴾ في عليّ ﴿**فأحبط أعمالهم**﴾).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (١٠)

وقد تكرر ذكر الأمثال في قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾** وقوله تعالى في ما يأتي **﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾**.

والآية تنبه الكافرين وتذكّرهم بما يمرون عليه من مشاهدة مصائر الأمم الخالية الذين أهلكهم الله تعالى بذنوبهم ليأخذوا العبرة والموعظة من عاقبة من سبقهم قبل فوات الأوان.

وربما كان فيها توجيه للسير والبحث عن تلك العبرة لا مجرد التذكير بالسير السابق لهم.

وورد في التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري (عليه السلام): في قوله: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾**، أي أوَلم ينظروا في أخبار الأمم الماضية، وقوله: **﴿دمّر الله عليهم﴾** أي أهلكهم وعذّبهم، ثم قال: **﴿وللكافرين﴾** يعني الذين كفروا وكرهوا ما أنزل الله في علي

﴿**أمثالها**﴾ أي لهم مثل ما كان للأمم الماضية من العذاب والهلاك.

وفي كنز جامع الفوائد قال جابر: (سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾ فقرأ أبو جعفر: ﴿**الذين كفروا**﴾ حتى بلغ إلى ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾ ثم قال: هل لك في رجل يسير بك فيبلغ بك من المطلع إلى المغرب في يوم واحد؟ قال: فقلت: يا بن رسول الله جعلني الله فداك ومن لي بهذا؟ فقال: ذاك أمير المؤمنين عليه السلام، ألم تسمع قول رسول الله: (لتبلغن الأسباب، والله لتركبن السحاب، والله لتؤتُن عصا موسى، والله لتُعطن خاتم سليمان..) الحديث.

ويحتمل أن الإمام (عليه السلام) صرف سائله عن صدد الآية وحوّله إلى موضوع آخر تقيةً، ولا نعلم ظرف السؤال.

إلا أن هذا الاحتمال يرد عليه أن مثل جابر (وهو جابر بن يزيد الجعفي)، يعرف أحوال الأئمة (عليهم السلام) والظرف المناسب لسؤالهم، كما أن جواب السؤال الجديد ربما يكون أخطر مما يتقى منه على الفهم الأول للآية وإن كان الفهم الأول – نعني علاقتها بالموقف من الولاية- داخل فيها، لكن ربما أراد الإمام (عليه السلام) إتحاف جابر بمعرفة جديدة حول عظمة الإمامة.

ومن الممكن أن نقدم فهماً للموضوع الذي تحدث عنه الإمام (عليه السلام) وارتباطه مع الآية الشريفة التي أمرت بأخذ العبرة من السير في الأرض، وهو قوله (عليه السلام): هل لك في رجل يسير بك فيبلغ بك من المطلع (يعني مطلع الشمس) إلى المغرب في يوم واحد؟ ذاك أمير المؤمنين عليه السلام.

أن العبرة بعينها هي من أنوارهم (عليهم السلام) تلك الأنوار الأزلية التي كانت قبل خلق الخلق، ومنها خلق الله جميع الخلق، كما في الأحاديث الشريفة المتكررة: أن أول ما خلق الله تعالى نور محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة (عليهم السلام) ثم خلق المكان .. وبسط الزمان.

فمعنى يسير بك من المطلع إلى المغرب: أي يعرض لك الحق والعبرة المذكورة في الآية الشريفة من مشرق الأرض إلى مغربها؛ لأن الأشياء في هذا العالم أسماء تعبر عن العالم الأعلى ولكن الناس غافلون عن حقيقتها، ويسمونها بأسماء غير أسمائها الحقيقية ويعرّفونها بصفات مادية ﴿**أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**﴾ (الأعراف:٧١)، ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ**﴾ (النور:٣٩).

وقد يراد بالسير: طيّ الأرض وهو الانتقال من مكان إلى آخر بغير وسائط النقل المألوفة. وذلك أننا قدمنا أن المكان والزمان مرتبطان بهم (عليهم السلام) فالمكان والزمان لديهم

(سلام الله عليهم) سواء؛ فيمكنهم أن يروا جميع الأمكنة وتكون أجسادهم الشريفة فيها، كما يمكنهم فعل ذلك النقل مع شيعتهم، وقد حكي عن جابر نفسه هذه الخصيصة.

والعلم الحديث بحسب النظرية النسبية يرى إمكانية طي المكان لأنه يرى أن الزمكان (التركيب بين الزمان والمكان) من لوازم المادة، وبالإمكان اختصار المكان علمياً بحسب العلم الحديث، ولكن علماء الفيزياء قالوا أن خلق نفق الاختصار المكاني يحتاج إلى طاقة نجم كامل[1].

والعلم الغربي المادي ليس كعلمهم (عليهم السلام) أو علم شيعتهم المخلصين؛ لأن العلم المادي هو وصف لما يمكن أن

---

(١) وهم (علماء الفيزياء النظرية) غافلون في الغالب عن أفق النور الذي يحكم عالم المادة، رغم ما يشاهدونه من عجائب سلوك الأشياء في المستويات الدقيقة (مستوى بلانك)، وعن طي الأبعاد فعلاً من قبل بعض الأجسام الدقيقة كالميزونات وهي أجسام دقيقة تنطلق من الشمس وتصلنا ولها من العمر ما يعادل جزءاً من المليون من الثانية، ومع ذلك تصل إلى الأرض التي تبعد عن الشمس ثمان دقائق ونصف للضوء الذي قالوا بأنه لا يوجد ما هو أسرع منه (٣٠٠،٠٠٠ كيلومتراً في الثانية) فكيف تسنى للميزون طي الزمان أو المكان وهو ذو طاقة ضئيلة جداً نسبة لما يحتاجه طي المكان بحسب حساباتهم؟ وكيف أمكن له أن يبطئ زمنه الخاص فيطيل عمره بالنسبة لنا؟.

يلاحظ ويقاس من سلوك الأشياء المدرَكة في العالم حتى لقد تساءل بعضهم إن بالفعل يستنتج شيئاً أو يعرف شيئاً[1]. نعم للعلم الغربي بصيغته المعاصرة آثار حقيقية بالاستفادة من تلك الأمور المكتشفة، ومن تلك الآثار هذه التكنولوجيا المتطورة.

أما علم أهل البيت (عليهم السلام) وتلامذتهم فهو علم حقيقي وواقعي ومؤثر في العالم قال تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ (النمل:٤٠).

ونعني أن تلك المعرفة بمكانة أهل البيت (سلام الله عليهم) تتيح للإنسان العارف معرفة الغايات الحكيمة من خلق الكائنات التي تتيح له التصرف في توجيهها؛ لأننا نؤمن أن العلة الغائية هي الحاكمة على العلة الفاعلية في التأثير في العالم، وأن الإنسان العارف بأهل البيت (عليهم السلام) سيكون له إمكانية التأثير في العالم مثلما يقوم أحدنا بخلق الصور والخيالات في ذهنه باستجابة الدعاء وانسجامه مع المسيرة الكونية العامة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١١)

---

(١) راجع كتابي (الفيزيائيون والخالق) صفحة ٤١.

ذلك النصر وتدمير الكافرين أمر طبيعي لأن الله تعالى مولى المؤمنين وأن الكافرين لا مولى لهم، ولعل في الآية الشريفة كناية عن قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الغدير: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

وفي تكملة الحديث السابق عن تفسير القمي قال الإمام (عليه السلام): (ثم ذكر المؤمنين الذين ثبتوا على إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: ﴿**ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم**﴾).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (١٢)

يدخلهم الجنات لأنها حقيقة وباطن أعمالهم واعتقاداتهم، وتلك الحقيقة -وهي أنوار الولاية- تجري منها أنواع الطاعات والقربات والمعارف، أما الذين كفروا فهمّهم الأكل والتمتع وليس لهم غاية في الحياة بل هم كالأنعام لا يطمحون إلى الترقي إلى عالم النور والتوجه إلى الله تعالى، وهم

مقيمون على معاصيهم قد أطفأوا نور ضمائرهم بإصرارهم على الباطل ومعاندتهم لأولياء الله وكتابه.

وقد تقدم ما عن كنز جامع الفوائد من تفسيرها بأعداء أمير المؤمنين (عليه السلام).

وعن تفسير القمي في الحديث السابق قال (عليه السلام): (ثم ذكر المؤمنين فقال: ﴿**إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ يعني بولاية علي (عليه السلام) ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا**﴾ من أعدائه ﴿**يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام**﴾ يعني أكلاً كثيراً ﴿**والنار مثوىً لهم**﴾).

والأكل الكثير دلالة على شره الأعداء سواء أريد به أكل الطعام خصوصاً أو أعم منه، ذلك الشره الذي يدل على يأسهم من الآخرة وتوجههم التام إلى الدنيا والملذّات فلم يعد لديهم أي وازع يردعهم، وقد كان معاوية يأكل حتى يتعب ويمل فيأمر خدمه برفع الطعام ويقول: تعبت ولم أشبع.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (١٣)

أي وكم من قرية، وفي الآية تهديد ووعيد، وعن علي بن إبراهيم عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) في تفسيره،

قال: إن الذين أهلكناهم من الأمم السالفة كانوا أشد قوة من قريتك يعني أهل مكة الذين أخرجوك منها فلم يكن لهم ناصر.
ولا تبعد الكناية في الآية الشريفة لما تقدم من مناسباتها.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾ (١٤)

مقارنة بين من اتبع الولاية فهو على بينة من ربّه ومن أعرض عنها وزُيّن له سوء عمله إذ انسجم مع معاصيه فلا تأنف نفسه من الذنوب ولا نور يخرجها من ظلمة المعاصي، بل ركنوا إلى أهوائهم الشيطانية فأظلمت قلوبهم كما عبر عنهم سبحانه في الآية (١٦) **﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾**.
وفي تفسير القمي قال الإمام (عليه السلام): (قال: **﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه﴾** يعني أمير المؤمنين (عليه السلام) **﴿كمن زُيّن له سوء عمله﴾** يعني الذين غصبوه **﴿واتبعوا أهواءهم﴾**).
وفي مجمع البيان في قوله تعالى: **﴿كمن زين له سوء عمله﴾** روي عن الباقر (عليه السلام) أنهم المنافقون.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ

لَّذَّة لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾ (١٥)

مثال للجنة لأن حقيقتها مما لا تستقيم الأفهام على معرفته فلا بد أن يضرب لهم المثال للتقريب.

والجنة هي البستان أو الحديقة سميت بذلك لكثافة الأشجار التي تُجِنُّ من فيها أي تخفيه وتحيط به.

والماء غير الآسن: هو الماء العذب الصافي الذي لا يتعفن، وصفات الماء في هذا العالم هو السائل الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة، وقد ورد في جملة من الأحاديث تشبيه العلم والمعرفة بالماء، ولعله مستوى من العلم البسيط الذي هو متقوم بالحياة، كما ورد ذكر الماء في بدء خلق الكون بقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء**﴾ (هود:٧)، وليس هو الماء المتعارف بل هو حقيقة الإيمان أو العلم الأول الذي انبثقت منه السماوات والأرض لا على نحو الحادث الزماني بل العلاقة الدائمة (الأزلية) القائمة بينه وبين الأشياء، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنبياء:٣٠).

ويفهم من هذا كيف تؤثر المعرفة المجردة في الأشياء.

واللبن والعسل والخمر كنايات عن نعم ومواهب مجردة عن المادة. وقد اكتفى القرآن بوصفها بظاهر الآيات لعدم قدرة اللغة القاموسية على إيصال التصور الحقيقي لها، ولعل في متابعة أهل البيت (عليهم السلام) ما يكشف للطالبين حقيقتها ويسقيهم منها فعلياً، أو لعل للآيات دلالات عرضية لإيصال المعاني الحقيقية على غير الدلالات الوضعية المتعارفة. والله العالم.

وفي تفسير القمي عن علي بن إبراهيم عن الإمام (عليه السلام): (ثم ضرب لأوليائه وأعدائه مثلاً فقال لأوليائه: ﴿**مثل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماءٍ غير آسنٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**من خمرٍ لذة للشاربين**﴾ ومعنى الخمر أي خمرة إذا تناولها ولي الله وجد رائحة المسك فيها ﴿**وأنهار من عسلٍ مصفّى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربّهم**﴾ ثم ضرب لأعدائه مثلاً فقال: ﴿**كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم**﴾ فقال لنبيّه: أفمن هو في الجنة الموصوفة كمن هو في هذه النار كما أن ليس عدو الله كوليّه).

وعن جابر الجعفي عن الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) إن أنهار الجنة تجري في غير أخدود أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل وألين من الزبد، طين النهر مسك أذفر وحصاه الدر والياقوت، تجري في عيونه وأنهاره حيث يشتهي ويريد في جنانه ولي الله، فلو أضاف (أي

استضاف) من في الدنيا من الجن والإنس لأوسعهم طعاماً وشراباً وحللاً وحلّياً لا ينقصه من ذلك شيء).

ومن أحاديث المعراج أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (لما دخلت الجنة رأيت في الجنة شجرة طوبى، ويجرى نهر في أصل تلك الشجرة تنفجر منه الأنهار الأربعة، نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر لذة للشاربين، ونهر من عسل مصفى..) الحديث.

وشجرة طوبى التي تنبع منها الأنهار الأربعة هي ولاية النبي وأهل بيته (عليهم الصلاة والسلام) ومحبتهم، وهي -كما في الأحاديث الشريفة- سدرة المنتهى التي قال الله تعالى فيها: ﴿**وَلَقَد رَآهُ نَزلَةً أُخرَى، عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عِندَهَا جَنَّةُ المَأوَى، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى**﴾ (النجم: ١٣-١٦).

ومنها يتفرع كل خير من أنواع الطاعات والمعارف النقية، وهي الشجرة التي أكل منها رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليلة المعراج فتولدت منها نطفة الزهراء (عليها السلام).

وفي بحار الأنوار (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما دخلت الجنة رأيت فيها شجرة طوبى، أصلها في دار علي، وما في الجنة قصر ولا منزل إلا وفيها فتر) أي غصن.

وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم): (إذا كان أول يوم من شعبان أمر بأبواب الجنة فتفتح، ويأمر شجرة طوبى فتطلع

أغصانها على هذه الدنيا، ثم ينادي منادي ربنا عز وجل: يا عباد الله هذه أغصان شجرة طوبى فتعلقوا بها تؤديكم إلى الجنان..) الحديث.

وفي البحار كذلك روي أنه (دخل على النبي (صلى الله عليه وآله) رجل من أصحابه ومعه جماعة فقال: يا رسول الله أين شجرة طوبى؟ فقال: في داري في الجنة، قال: ثم سأله آخر فقال (صلى الله عليه وآله): في دار علي بن أبي طالب في الجنة، فقال: يا رسول الله سألناك آنفاً فقلت: في داري ثم قلت: في دار علي بن أبي طالب! فقال له: إن داري وداره في الدنيا والآخرة في مكان واحد).

وفي البحار: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (خلق الله جنات عدن بيده، ونصب شجرة طوبى في الجنة بيده).

وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم): (ألا ومن أحب علياً لا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من شجرة طوبى ويرى مكانه من الجنة).

وقال (صلى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين (عليه السلام): (وأنت صاحب شجرة طوبى في الجنة أصلها في دارك وأغصانها في دور شيعتك ومحبيك).

وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم): (أن الله تعالى ألقى في روعي أن حبه (أي علي (عليه السلام)) شجرة طوبى التي غرسها الله تعالى بيده).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾ (١٦)

أي من الذين كفروا بما أنزل الله من يكون قريباً منك، ولكنه لا يفهم ما تقوله لغبائه أو يتظاهر بأنه لم يفهم ما تقصده، ويسأل الذين أوتوا العلم (وهم الذين عرفوا كلام النبي وسلموا له)، ويتساءل عما قلته يا محمد، وهي محاولات منهم للتعتيم والتجاهل والاستعداد للمؤامرة والتشكيك في ما يصدر منه (صلوات الله عليه وآله) في حق أمير المؤمنين (عليه السلام).

والطبع على القلوب، وإن حمله بعض المفسرين على أنه وصف لغبائهم في قبال أهل العلم، إلا أن معاقد هذه العبارة مع الآيات الأخرى تدل على أنه طبع القلوب عن الإيمان ووصف لحقدهم على أهل البيت (عليهم السلام).

ولو أنهم لم يكونوا يفهمون ما يقال لسألوا رسول الله واستوضحوه منه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي الحديث السابق قال (عليه السلام): (وقوله: ﴿**ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً**﴾ فإنها نزلت في المنافقين من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن كان إذا سمع شيئاً منه لم يؤمن به ولم يعه فإذا خرجوا قالوا للمؤمنين: ماذا قال محمد آنفاً، فقال الله: ﴿**أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم**﴾).

وفي تفسير القمي عن أبي بصير عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يدعو أصحابه فمن أراد الله به خيراً سمع وعرف ما يدعوه إليه ومن أراد الله به شراً طبع على قلبه لا يسمع ولا يعقل وهو قول الله تعالى: ﴿**حتى إذا خرجوا من عندك**﴾ إلى قوله: ﴿**ماذا قال آنفاً**﴾).

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ (١٧)

ربما كان المعنى أن الذين اهتدوا لما قلته يا محمد (صلوات الله عليه وآله) زادهم الله بصيرة وهدى في هذا الأمر، أو أن الذين اهتدوا إليك وسلّموا لأمر نبوتك حقيقةً زادهم هدى ببيان ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، وكان ذلك نتيجة أعمالهم

الصالحة، فيكون المعنى مثل ما يُفهم من قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه:٨٢).

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ (١٨)

أي هل ينتظر هؤلاء المتآمرين إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فيهلكون، وقد جاءت أشراط الساعة. كما قال (صلى الله عليه وآله وسلم): بُعثت والساعة كهاتين –وقرن بين إصبعيه- وإن كادت لتسبقني، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): بعثت والساعة كفرسي رهان يسبق أحدهما صاحبه بإذنه، وإن كادت (كانت) الساعة لتسبقني.

وأشراط الساعة هي علاماتها –في حدود ما اطلعت عليه من أقوال المفسرين-.

وقد تكون بمعنى أوائل الأشياء كما عن لسان العرب.

وعنه كذلك أن الأشراط هم الأشراف ففي الحديث (لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض فيبقى عجاج لا يعرفون معروفاً..) الحديث.

وعن ابن عباس، قال: (حججنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حجّة الوداع وهي آخر حجّة حجّها رسول الله

(صلى الله عليه وآله) في حياته، فأخذ بحلقة باب الكعبة ثمّ أقبل علينا بوجهه فقال: ألا أخبركم بأشراط الساعة؟ فكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رحمة الله عليه فقال: بلى يا رسول الله، قال (صلى الله عليه وآله): إنّ من أشراط الساعة إضاعة الصلوات، واتباع الشهوات، والميل مع الأهواء، وتعظيم أصحاب المال، وبيع الدين بالدنيا، فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره..) الحديث.

وهي من أشراط الساعة وربما لم يذكرها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جميعها، والرواية ضعيفة السند.

وروي أنه قال في مرضه الذي قُبض فيه (صلوات الله عليه وآله): (أيها الناس سُعّرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، إني والله ما تمسكون علي بشيء، إني لم أُحلّ إلا ما أحَلّ القرآن ولم أحرّم إلا ما حرّم القرآن ..) الحديث[1].

وورد في كثير من الآيات الشريفة في القرآن الكريم تهديد باقتراب الساعة قال تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ (القمر:١) بل أخبر الله تعالى عن اقتراب الساعة من لدن بعثة

---

(١) راجع السيرة الحلبية: ٣ / ٣٥٠ وغيره.

موسى (عليه السلام) قال تعالى في كلماته مع نبيه موسى: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**﴾ (طه:١٥).

وقد يتساءل الفرد بعد هذه الفترة الطويلة عن هذا الاقتراب وما معناه وما قياسه وكم بقي له.

فيجاب السؤال الأول عادة بأن الآيات الشريفة والأحاديث النبوية تحدثت عن اقتراب الساعة ولم تحدد موعداً لها، فيكون الاقتراب نسبياً، ومقارنة بعمر البشرية (آلاف السنين) أو عمر الكون (مليارات السنين) لا زال الوقت قريباً من وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى اليوم فإذا حصلت – حتى بعد ألف سنة) يصدق عليه أنه قريب، غاية الأمر أننا نراه زماناً طويلاً نسبة إلى قصر أعمارنا وقلة صبرنا.

وقد يتساءل البعض سؤالاً أكثر تجريداً وربما يبدو سؤالاً غبياً إلى درجة أنه لا يخطر على الأذهان وهو: أنه هل حصلت القيامة أو قامت الساعة سابقاً ودون أن ندري؟.

والفكرة السائدة لدى أغلب المتشرعة أن يوم القيامة هو ميقات في آخر الزمان يكون مصحوباً بكوارث طبيعية تهلك هذا العالم المادي فتنسف الجبال وتمد الأرض وتنشق السماء وتحترق البحار كما هو موجود في ظاهر آيات القرآن الكريم، فمن الطبيعي وفق هذا الفهم أن لا تكون الساعة قد قامت إلى هذا اليوم؛ لأننا لا زلنا نعيش في عالم الدنيا ولم نمت ولم ننتقل إلى

عالم الآخرة، وهو عالم ليس فيه ذنوب ومعاصي ولا حكام ظلمة ومآسي إنسانية، أما عالم الآخرة ففيه الجنة ومن يتنعم فيها وفيه النار ومن يتعذب فيها، وهو عالم لا يشبه المشاهد التي حولنا اليوم، فمن المؤكد بحسب هذا الفهم أن القيامة لم تقم بعد.

أما ما ورد من مشاهدة رسول الله لعالم الآخرة ليلة المعراج ودخوله الجنة وأكله (صلى الله عليه وآله وسلم) منها، واطلاعه على أهل النار ومشاهدة أحوالهم فيجاب عنه عادة أنه من المعجزة التي عبرت الزمان، وأما ما ورد من مشاهدة بعض المؤمنين للقيامة وأحوال الآخرة فيجاب عنه من باب الكشف القلبي، وهي أجوبة تفتح من علامات الاستفهام أكثر مما تجيب عنه.

مثل ما روي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سأل أحد الشبان المؤمنين في المسجد: كيف أصبحت؟ قال الشاب: أصبحت مؤمناً، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): وما علامة إيمانك؟ قال: كأني أرى الجنة ومن يتنعم فيها والنار من يتعذب فيها، وكأني أرى القيامة قد قامت والميزان نصب للحساب.

ولعلنا نتعرض لهذا البحث بصورة أعمق في الآية (٥١) من سورة الإسراء: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أن يَكُونَ قَرِيباً﴾.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١٩)

بعد أن أنذر الحق سبحانه بمجيء أشراط الساعة أمر بما ينجي من أهوالها وهو التوحيد والاستغفار.

والمثوى هو المنزل الثابت في إزاء المحل المتغير وهو المتقلَّب، وربما كان المراد بهذا المقطع من الآية الشريفة وصف أحوال الإنسان واطلاع الله سبحانه عليه في جميعها، مما يبعث على الحذر من مخالفة الله سبحانه في السر والعلن. أو يكون المراد من المتقلب الحياة الدنيا ومن المثوى الموت لأنه دار البقاء.

ومن الممكن تقديم أطروحة للتركيب بين معاني الآية الشريفة مفادها: أن تكون الآية في صدد وصف الفتنة المقبلة وأنها فتنة حول أصل التوحيد وسر الإمامة، وأن جملة من الناس في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ستتغير مواقفهم منها (وهم المتقلبون) وسيثبت منهم من علم الله منه الثبات (وهم أهل المثوى)، وسيزيغ كثير من المجتمع الإسلامي عنها، كما قد يتزلزل

بعض المؤمنين في تلك الفتنة مما يستوجب استغفار النبي للمؤمنين المقصرين من الأمة بحق أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهم الذين قصّروا في نصرته ثم ندموا على ذلك وكفّروا عن سيئاتهم.

وجميع حوادث الفتنة تقع في (تخطيط) الحكمة الإلهية بهدف توضيح كلمة التوحيد وبيان المخلصين من المنحرفين وتمحيص القلوب والنوايا في الطريق إلى يوم القيامة[1]، والله العالم.

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَاعلَمْ﴾ أنه أمر بتعلم علوم التوحيد. وقد يكون في الكلمة أثر واقعي في ثبوت هذه المعرفة في قلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقلوب الأمة، لما تحدثنا عنه سابقاً في مقدمة كتاب (سورة الواقعة ومحبة الله) بعنوان البرهان القرآني.

---

(١) يرى الفيلسوف الألماني فرديريك هيجل أن الروح أو العقل يحكم التأريخ وليس تأريخ العالم سوى صراع من جانب الروح لكي تصل إلى مرحلة الوعي الذاتي، وأن ظاهر التأريخ أحداث ووقائع تبدو فوضوية بلا هدف، أما باطن التأريخ فهو العقل الذي يكمن في بواطن الأشياء ويحكم مساره. انظر كتاب (محاضرات في فلسفة التأريخ، صفحة ٣٣-٣٥) فريدريك هيجل، وانظر كذلك مقالتي حول فلسفة التأريخ على صفحتي في الفيس بوك، وفيها طرحت نظرية أن الإنسان الكامل هو فلسفة التأريخ وعدة نظريات أخرى.

وفي أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الاستغفار وقول لا إله إلا الله: خير العبادة، قال الله العزيز الجبار: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك**﴾).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من قال لا إله إلا الله غُرست له شجرة في الجنة من ياقوتة حمراء منبتها في مسك أبيض أحلى من العسل، وأشد بياضاً من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك).

وفي كتاب التوحيد للشيخ الصدوق (قدس سره) بإسناده إلى محمد بن حمران عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن يحجزه لا إله إلا الله عما حرم الله عز وجل).

وروي عن الإمام الرضا (عليه السلام) حين استوقفه الناس وكان فيهم عشرات المحدثين من الطائفتين في نيشابور (وكان (عليه السلام) أراد أن يخرج منها إلى المأمون واجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا: يا بن رسول الله ترحل عنا ولا تحدثنا بحديث فنستفيده منك؟ وكان قعد في العمارية، فأطلع رأسه وقال: سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول. سمعت أبي الحسين بن علي يقول: سمعت أبي

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سمعت جبرائيل يقول: سمعت الله يقول: لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي، فلما مرت الراحلة نادى: بشرطها وشروطها وأنا من شروطها).

وروي عن الإمام الرضا (عليه السلام) كذلك في موضع آخر قال: (سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: إلى أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: سمعت جبرائيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن اللوح عن القلم قال: يقول الله عز وجل: ولاية علي بن أبي طالب حصني فمن دخل حصني أمِن من عذابي).

وولاية أهل البيت (عليهم السلام) هي عين المعرفة بفحوى كلمة الإخلاص في القلوب. ومنه نعلم وجه الجمع بين حديثي الإمام الرضا (عليه السلام) الذي قاله في نيشابور حيث كان المجمع عاماً وفيه من المحدثين من هم من غير مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) فتطلب الأمر أن يكنّي (عليه السلام) عن الأمر، بذلك اللطف، أما الرواية الثاني فقد رواها عنه (عليه السلام) بعض شيعته. وكذلك الأمر في السورة الشريفة فنفهم منها وجه الارتباط بالمطلب الرئيسي لها، وأهمية الولاية في الإسلام.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ، طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ (٢٠- ٢١)

بيان لحال مجموعة في المجتمع الإسلامي يومئذٍ من الذين كانوا يعيشون في شك من أوامر النبي (صلى الله عليه وآله) فيتمنون نزول سورة لتأكيد التكليف وربما أمّلوا أن لا ينزل شيء صريح فيكون مبرراً –بظنهم- للتقاعس والتخاذل بل والعصيان.

فالأولى لهم إذا نزل شيء أن يطيعوا قولاً وفعلاً. بل الأولى لهم من ذلك أن يطيعوا أمر النبي (صلى الله عليه وآله) ابتداءً؛ لأنه ينطق عن أمر الله تعالى، وفي الآية إشعار بظهور فكرة التفريق في الطاعة بين الأمر النبوي والأمر القرآني أي عزل طاعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن طاعة الله والاجتهاد في قبالها، مثل من ردّوا أمر النبي (صلى الله عليه وآله) يوم رزية الخميس قبيل وفاته بأن يجلبوا له كتاباً لن يضلوا بعده أبداً فقالوا: حسبنا كتاب الله، مع أن كتاب الله يأمرهم بطاعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وردّ الأمور إليه في كل شيء.

ومثل ذلك ما فعلوه من التخلّف عن جيش أسامة حيث روي في كتب السيرة والتأريخ أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جهّز جيش أسامة وأمره بالخروج في شهر محرم، ولكنهم تخلفوا عنه والتووا على الأمر بعذر وبغيره مع إصرار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على خروج الجميع معه ولعن من يتخلف عن جيش أسامة وعقده (صلى الله عليه وآله وسلم) الراية له بيده الكريمة، فتخلفوا عنه حتى توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) في آخر صفر أو في ربيع على روايات الفريقين، أي أنهم أخّروا الجيش قرابة شهرين[1]، ونفهم من عدم إخراج الرسول (صلى الله عليه وآله) للجيش من دون المتخلفين أن من الأهداف الرئيسية لهذه البعثة إخراجهم من المدينة المنورة أو إقامة الحجة الدائمة عليهم بتخلفهم عن تنفيذ أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتعرضهم لغضبه ولعنه.

---

(١) ذكر قصة جيش أسامة حشد من المؤرخين، وذكروا أنه (صلى الله عليه وآله) أخرج فيهم أبا بكر وعمر وأبا عبيدة وأغلب الصحابة، انظر (الطبقات الكبرى: ٦٦/٤) و(فتح الباري: ١٢٨/٢) و(الكامل:٣١٧/٢) و(تأريخ اليعقوبي: ٧٧/٢، ١٣٧) وغيرها من المصادر وذكروا أنه: (جهّز النبي (صلى الله عليه وآله) الجيش في محرم بعد عودته من حجة الوداع، وابتدأ به المرض في أواخر صفر وتوفي (صلى الله عليه وآله) في الثاني عشر من ربيع الأول).

وقد يراد بالقتال الكناية عن أمر الولاية على نحو اللحن كما تقدم في مبرراته.

كما من الممكن أن يكون للآية الشريفة ارتباط بالآية التي وصفت تشكيك البعض وتشويشهم على كلمات الرسول (صلى الله عليه وآله) بقولهم ﴿**ماذا قال آنفاً**﴾ فلعلهم إذا أُمروا بالقتال أن ينكروا أيضاً إذا خرجوا من عند رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وقوله تعالى: ﴿**فإذا عزم الأمر**﴾ أي إذا حان حين الجد ونزل الأمر المحكم الواضح الذي لا تشابه فيه بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿**فلو صدقوا الله**﴾ أي صدقت أفعالهم ما يظهرونه من الإيمان، لكان خيراً لهم من التقاعس أو مما يضمرونه من المعاصي.

والذين في قلوبهم مرض: تعبير عن فئة ممن تظاهر بالإسلام وقد استعمل في بعض السور المكية أي قبل نشأة مجتمع المدينة مما يُشعر بأنه غير مصطلح المنافقين الذي استعمل بعد الهجرة رغم وجود المنافقين قبلها في من تبع النبي (صلى الله عليه وآله). ومن ذلك قوله تعالى في سورة المدثر التي هي مكية نزلت في أوائل البعثة النبوية: ﴿**وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً**﴾ (الآية:٣١)، وستأتي –بإذن

الله تعالى- رواية في وصفهم عند قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ**﴾ (الآية:٢٩).

وفي تفسير القمي عن الإمام (عليه السلام): (وقوله: ﴿**ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة**﴾ إلى قوله: ﴿**فأولى لهم**﴾ فهم المنافقون، ثم قال: ﴿**فإذا عزم الأمر**﴾ يعني الحرب ﴿**فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم**﴾ ﴿**فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾ نزلت في بني أمية).

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢)

هذه الآية إنْ نُظر إليها بسياق واحد مع سابقتها لَكَشفَ ذلك أن المقصود مما سبق ليس هو التخاذل والقعود الناشئ من الكسل، بل هو التآمر على أخذ الولاية والتخطيط لقطع الأرحام التي أمر الله بها أن توصل.

فهذه الآية الشريفة تذكر التولي في الأرض وهي ليست شيمة المتقاعسين، بل النشطاء الذين قد يدخل التقاعس ضمن خططهم أحياناً كما مرّ من التقاعس عن بعثة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأسامة بن زيد يوم جيّش له عامة الصحابة وأمرهم بالخروج معه إلى وجهته ولعن من تخلف عنه، ولكنهم

تخلفوا عن جيش أسامة بدواعي شتى حين علموا أن وفاته (صلى الله عليه وآله) أصبحت قريبة وأن الفرصة للتولي على الناس ستفوتهم إن خرجوا في ركب أسامة.

وكلمة (عسى) ومشتقاتها وإن كانت في أصل الوضع تشعر بالاحتمال إلا أنها بدلالة سائر الكلام وشأن المتكلم تدل على توقع ذلك ووقوعه، فهي تنبئ بذلك الانحراف الكبير.

وفي تفسير نور الثقلين عن أهل البيت (عليهم السلام) أنّ هذه الآية في بني أُمية الذين لم يرحموا صغيراً ولا كبيراً، بل سفكوا دماء الجميع حتى أقاربهم لـمّا تسلّموا زمام الحكم[1].

وهذه الآية تجري في كل من تولى على الأمة بغير حق كما روي في الخبر عن رؤيا المهدي العباسي أميرَ المؤمنين (عليه السلام) يشير إليه ويقرأ: ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾ فانتبه مذعوراً. وذلك حين أمر حميد بن قحطبة بقتل الكاظم (عليه السلام)، فنهى حميداً عن قتله ثم أكرمه.

وهذه الرؤيا تأويل التنزيل المستمر الذي يجري على يديه (عليه السلام) إلى يوم القيامة، لأنه (سلام الله عليه) يقاتل على التأويل، وهو التأويل.

---

(١) نور الثقلين: ٥/ ٤٠.

وعن كنز جامع الفوائد عن الحلبي قال: قرأ أبو عبد الله عليه السلام: ﴿**فهل عسيتم إن توليتم**﴾ وسُلطتم وملكتم ﴿**أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾ ثم قال: نزلت هذه الآية في بني عمنا بني العباس وبني أمية، ثم قرأ: ﴿**أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم**﴾ عن الدين ﴿**وأعمى أبصارهم**﴾ عن الوصي، ثم قرأ: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم**﴾ بعد ولاية علي ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم**﴾ ثم قرأ: ﴿**والذين اهتدوا**﴾ بولاية علي ﴿**زادهم هدى**﴾ حيث عرفهم الأئمة من بعده والقائم ﴿**وآتاهم تقواهم**﴾ أي ثواب تقواهم أماناً من النار. وقد كررنا الرواية لزيادة الفائدة وربط الكلام.

وإذا كان المقصود من التولي: مطلق الإدبار مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ**﴾ (آل عمران:١٥٥)، فيكون التسلط ومنازعة أولياء الله مراتبهم من أوضح أنواع التولي والإدبار، وبهذا يكون المعنى أشمل.

إلا أن الإضافة ﴿**فِي الأَرْضِ**﴾ لا تساعد على هذا المحمل.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ (٢٣)

جزاء أولئك المتولين في الأرض الذين يقطعون الأرحام، أو جميع الذين أعرضوا عن أهل البيت (عليهم السلام) أن تُصم آذانهم وتعمى أبصارهم وأن عليهم لعنة الله عز وجل.

أو أن المعنى أن توليهم في الأرض وإفسادهم الظاهر لأنهم من قبل قد لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم.

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤)

أولئك المعرضين أو المتآمرين: أفلا يتدبرون القرآن فيعرفوا الحق ويسلموا لأمر الله تعالى؟! فعن الإمامين الصادق والكاظم (عليهما السلام): (أفلا يتدبرون القرآن فيقضون ما عليهم من الحق).

وفي الآية الشريفة تنبيه عام يحمل على التأمل في سائر آيات السورة الكريمة ومعرفة مواضع اللحن والكناية لمعرفة أسرار المؤامرة الكبرى، فيعرف قارئ القرآن المتدبر فيه ما حصل في الأيام الأخيرة من حياة صاحب الرسالة (صلى الله عليه وآله).

أو يراد بها التأمل في آيات جميع القرآن الكريم لمعرفة الحق وزيادة الإيمان.

وربما أمكن تقديم فكرة كنت قد أشرت إليها بشكل مختصر في كتابي (الذكر في سورة صاد المباركة) مفادها أن من

الممكن عند تلاوة القرآن الكريم أن يطلع الإنسان بنحو من الدلالة غير اللفظية على جزئيات ما يذكره ظاهر اللفظ القرآني، فيكون التدبر في القرآن أو في هذه الآيات كاشفاً للمؤمنين عن أولئك المتآمرين كما في ورد في الكافي عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: (دفع إلي أبو الحسن (عليه السلام) مصحفاً وقال: لا تنظر فيه، ففتحته وقرأت فيه: ﴿**لم يكن الذين كفروا**﴾ فوجدت فيها اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم قال: فبعث إلي: ابعث إلي بالمصحف).

ولا يحتمل أن يكون ذلك المصحف مشتملاً على نصوص آيات ذُكرت فيها الأسماء وقد أنزلت على النبي (صلى الله عليه وآله) وهي غير موجودة في المصحف المتداول، لأن التأريخ لم يذكر لنا نزول آيات بأسماء المنافقين نصاً، وليس هو منهج الرسول (صلى الله عليه وآله) معهم، بل يحتمل أن تكون رؤية أبي نصر لأسمائهم على نحو الدلالة غير اللفظية كما قلنا[1].

(١) سيأتي الكلام في مثل هذه الدلالات (العرضية) عند الحديث عن الحروف المقطعة في كتابي (عواطف الآملين في سورة القصص) إن شاء الله تعالى.

ويكون في القرآن الأسماء الحقيقية لأهل البيت (عليهم السلام) وإنما يكشفها التدبر المناسب الناتج من سلامة القلب ورفع الأقفال.

وأقفال القلوب قد تكون هي الذنوب المانعة من رؤية الحق كما قال تعالى: ﴿**كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (المطففين:١٤).

أو قد تكون الأقفال: الجهل المطبق عليهم فيمنعهم من التدبر.

أو قد تكون الأقفال طاعة ومحبة أعداء الله فيمنعهم ذلك عن رؤية الحق في ذمّهم.

أو تكون الأقفال هي الشرك؛ ففي كتاب الخصال: (قال علي عليه السلام لبعض اليهود وقد سأله عن مسائل: أما أقفال السماوات: فالشرك بالله، ومفاتيحها قول لا إله إلا الله)، فتأمل.

والآية تختلف من حيث نهايتها ﴿**هَا**﴾ مع الآيات السابقة واللاحقة، وتشبه المقطع الذي ورد في آية القتال في صدر السورة وهو قوله تعالى: ﴿**حتى تضع الحرب أوزارها**﴾ الذي اندمج مع ما بعده ﴿**ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم**﴾ فكانا آية واحدة وقيل هما آيتان، وهي تشبه المقطع ﴿**دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها**﴾، وتشبه المقطع ﴿**فقد جاء أشراطها**﴾ الذي هو مندمج مع المقطع ﴿**فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم**﴾ فكانا آية واحدة وقيل

هما آيتان كذلك، وإنما حصل التقطيع في مرحلة لاحقة من جمع القرآن وفصل الآيات، مما أوجب الاختلاف فيها؛ لأن الآيات في المصاحف الأولى لم تكن مرقمة كما في المصاحف المتأخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ (٢٥)

الارتداد على الأدبار يعني الخروج من الدين، والآية تتكلم بوضوح عن فئة من المجتمع الإسلامي ارتدوا على أدبارهم وخرجوا من الدين بعد أن تبين لهم الهدى.

والظاهر أن الآية في أولئك الذين تآمروا على حق أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد غدير خم وقبله.

وقوله تعالى: ﴿**الشيطان سوّل لهم وأملى لهم**﴾ قد يراد بالشيطان من ينطق الشيطان على ألسنتهم أو كناية عن رؤساء المتآمرين.

وللآية معقد مع الآية (٣٢) وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ**﴾ مما يحتمل معه أن يكون المعنى متصلاً، أي ذلك الارتداد ليس هو التخاذل والقعود عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بل هو شقاقهم

وكفرهم وصدهم عن سبيل الله ذلك الصد الذي ذكر في صدر السورة الشريفة: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُم**﴾ مما يؤيد كون السورة ذات معنى واحد وقصة متصلة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢٦)

بيان لجانب آخر من المؤامرة السرية التي يقودها الذين كرهوا ما نزل الله، وهو السعي لتكثير الأتباع وإقناع الناس بخططهم، وفي الآية تهديد بإحباط أعمال من يطيعهم في بعض أمرهم.

ويظهر إلى هذا المقدار أن هناك رؤساء للفتنة ﴿**كرهوا ما نزل الله**﴾ وأتباعاً لهم وعدوهم بالطاعة، وربما ظنوا أن ذلك لا يضر بعموم مظاهر الإيمان التي صرحوا بها بألسنتهم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم من ذوي القلوب المريضة والمنافقين.

وهي مثل قوله تعالى: ﴿**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ، أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ (الزخرف:٧٩-٨٠).

ويا لها من نفوس خبيثة وقلوب متحجرة حاسدة وحاقدة إذ يرون الآيات ويعايشون الوحي الذي يتحدث معهم بما تضمر

نفوسهم ويخبرهم بمؤامراتهم، ولكنهم يصرون (ويصبرون) على وضعهم مع دوام الحجج ضدهم، إنه موقف يذكرني بقصة إبليس الذي حسد آدم (عليه السلام) على تفضيل الله تعالى له وواجه الأمر الإلهي بالعناد والاستكبار وخاطب الله تعالى بكل وقاحة: ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً**﴾ (الإسراء:٦٢) وسيأتي بإذن الله تعالى في غير هذا الكتاب أن من هذه الكلمات تشتق معظم معاصي الناس وذنوبهم.

وفي تفسير القمي عن محمد بن علي عن الإمام الصادق (عليه السلام): (في قوله: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم**﴾ عن الإيمان بتركهم ولاية علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ﴿**الشيطان**﴾ يعني فلاناً ﴿**سوّل لهم**﴾ يعني بني فلان وبني فلان وبني أمية قوله: ﴿**ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله**﴾ هو ما افترض الله على خلقه من ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ﴿**سنطيعكم في بعض الأمر**﴾ قال دعوا بني أمية إلى ميثاقهم ألا يصيّرون لنا الأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله) ولا يعطونا من الخمس شيئاً وقالوا: إن أعطيناهم الخمس استغنوا به، فقالوا: سنطيعكم في بعض الأمر أي لا تعطوهم من الخمس شيئاً فأنزل الله على نبيه (صلى الله عليه وآله) ﴿**أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون، أم يحسبون أنا لا نسمع سرّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم**

يكتبون﴾)، ويلوح من هذا الحديث الذي أدخل بني أمية في المؤامرة الأولى أن هناك صفقة في الحكم معهم تمت في حياة النبي (صلى الله عليه وآله) وهو ما يفسر انتقال الملك إلى بني أمية بعد فترة من الزمان، ولا نعلم إن كان التحريض لإمساك للخمس كان في آخر حياة النبي لإضعافه عن أن يتخذ بعض القرارات أو بعد وفاته (صلى الله عليه وآله).

وعن علي بن إبراهيم عن الإمام (عليه السلام) (في قوله: **﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى﴾** نزلت في الذين نقضوا عهد الله في أمير المؤمنين (عليه السلام) **﴿الشيطان سوّل لهم﴾** أي هوّن لهم وهو فلان **﴿وأملى لهم﴾** أي بسط لهم أن لا يكون مما قال شيئاً[1] **﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله﴾** في أمير المؤمنين **﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾** يعني في الخمس أن لا يردوه في بني هاشم **﴿والله يعلم إسرارهم﴾**).

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾(٢٧)

---

(١) ربما كان (عليه السلام) يعني بقوله: (ألا يكون مما قال شيئاً) أن لا يكون مما قال النبي (صلى الله عليه وآله) عن الآخرة شيئاً، أو عن نصر الله.

فكيف بأولئك المرتدين أو بمن يطيعهم إذا توفتهم الملائكة وقد حبطت أعمالهم وارتدوا عن دينهم فيُضربون على وجوههم وأدبارهم.

وفي تفسير القمي بالسند السابق قال (عليه السلام): (قال الله: ﴿**فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم**﴾ بنكثهم وبغيهم وإمساكهم الأمر من بعد أن أبرم عليهم إبراماً يقول: إذا ماتوا ساقتهم الملائكة إلى النار فيضربون من خلفهم ومن قدّامهم).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨)

ذلك العذاب لأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا ما رضيه، والظاهر أنها تخص ما رضيه لهم من تعيين ولاة الأمر، وما أسخطه تعالى من الشقاق عليهم.

وقد تكررت مثل هذه الصيغة في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ (الآية:٩).

وفي تتمة الحديث السابق عنه (عليه السلام) قال: (﴿**ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله**﴾ يعني موالاة فلان وفلان ظالمي أمير المؤمنين ﴿**فأحبط أعمالهم**﴾ يعني التي عملوها من الخيرات).

وعن جابر الجعفي قال: (سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: ﴿**ذلك بأنهم كرهوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم**﴾ قال: كرهوا علياً (عليه السلام) وكان علي رضا الله ورضا رسوله، أمر الله بولايته يوم بدر ويوم حنين وببطن نخلة ويوم التروية، ونزلت فيه اثنتان وعشرون آية في الحجة التي صدّ فيها رسول الله عن المسجد الحرام بالجحفة وبخُم).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ (٢٩)

الذين في قلوبهم مرض ممن كانوا ينظرون إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نظر المغشي عليه من الموت، كانوا يضمرون الضغائن ويأملون أن تبقى نواياهم مخفية عن الناس لبلوغ مآربهم وما يخططون له. ومثله قوله تعالى: ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ**﴾ (التوبة:٦٤).

وإخراج أضغانهم يكون بإيكالهم إلى أنفسهم أن يظهروا الحقد لأولياء الله والتولي في الأرض والإفساد فيها وقطع الأرحام.

وعن جابر الجعفي عن الباقر (عليه السلام) قال: (لما نصب رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً (عليه السلام) يوم غدير خم قال قومٌ: ما يألوا يرفع ضبع[1] ابن عمه، فأنزل الله تعالى: ﴿**أم حسبَ الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم**﴾).

﴿وَلَوْ نَشَاء لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠)

لو نشاء لفضحناهم وأريناهم لك أو لسائر المؤمنين فتعرفهم إذا شئنا ذلك بعلاماتهم أو بأسمائهم أو ببغضهم لعلي (عليه السلام)، وكذلك هم يعرفون بلحن القول، ونفهم منه أن من الممكن معرفتهم ومعرفة أعمالهم بما كنّى عنهم القرآن من صفتهم لمن يتدبر الآيات. بل لعل الله سبحانه كشفهم لهم ولكن الآية وردت بهذا اللحن لتجنب استعدائهم واستعجالهم إذا علموا بافتضاحهم.

---

(١) الضبع ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه، يريدون به: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يزال يرفع شأن ابن عمه، تعصباً.

وقيل إن لحن القول: هو بغضهم لعلي (عليه السلام) والرأي منسوب لأبي سعيد الخدري ولا نفهم قصده، والراجح عندي أن أبا سعيد أراد مجمل الآية أو المقصودين بها لا أن لحن القول هو البغض، ومثل هذا الإجمال وارد في كلام العرب.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١)

أي أن الابتلاء القادم هو لمعرفة المجاهدين أو إخراج استعداداتهم إلى الفعلية، ومعرفة أخبار الجميع وأحوالهم وما كانوا يضمرونه حتى تتم الحجة على الناس.

فالمنافقون غير معجزين لله تعالى فيما يفعلونه وإنما الحكمة اقتضت أن تجري الأمور وفق ما يخططون له لإظهار استحقاق المؤمنين للجنة واستحقاق الكافرين للنار.

وهي مثل قوله تعالى: **﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ، أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾**(العنكبوت: ٢-٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٣٢)

تقدم الحديث فيها في الآية (٢٥)، فراجعها لتعرف معانيها الشريفة.

وعن تفسير القمي بسنده السابق قال الإمام (عليه السلام): (﴿**إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله**﴾ قال: عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ﴿**وشاقّوا الرسول**﴾ أي قاطعوه في أهل بيته بعد أخذه الميثاق عليهم له).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣)

تكرر ذكر إحباط الأعمال، وتبين أنه بسبب كراهة ما نزل الله وطاعة الذين كرهوه، وعبر سبحانه عن الإحباط هنا بالإبطال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤)

وهم كفار: مقيمون على ارتدادهم وبغضهم لما أنزل الله وماتوا وهم على ذلك. فلن يغفر الله لهم.

﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥)

أي يا أيها المؤمنون لا تضعفوا أو تشعروا بالهوان بسبب غلبة الباطل وكثرته؛ لأنكم أنتم الأعلون بالحجة والنصرة وأن الله معكم، وهو لن يضيع أعمالكم؛ لأن العاقبة للمتقين وأن هناك داراً تظهر فيها نتائج أعمالكم وحقائقها فلا تنقطع عنكم ولا ينقطع عنكم ثوابها وإن خفي أثرها في هذه الدنيا لأنها دار محدودة قاصرة.

وفي تفسير القمي بسنده السابق قال الإمام (عليه السلام): (**﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾** أي لم ينقصكم).

﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَموَالَكُمْ، إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ (٣٦- ٣٧)

فالحياة الدنيا ليست دار جزاء ﴿**وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ (آل عمران:١٨٥).

وفي الآية الثانية ما لا يخفى من المداراة لمؤمني ذلك الزمان وبيان ضعفهم عن نصرة الحق وصعوبة تضحيتهم بالأموال وغير الأموال، مما يحتمل معه أن هذا البيان لمستواهم الضحل من مقاصد الآية الشريفة أي قوله تعالى فيها: ﴿**إن يسألكموها فيحفكم** –أي يصرّ عليكم- **تبخلوا ويخرج أضغانكم**﴾ ففي هذا المقطع إشارة تأريخية إلى ضعف نفوس كثير من أبناء المجتمع وقتذاك وتعلقهم بالدنيا وقعودهم عن نصرة أهل الحق، بعد أن أشار الله تعالى إلى التوائهم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بحجة انتظار نزول آية صريحة، وأشار إلى عدم وعيهم لكلامه (صلى الله عليه وآله) رغم استماعه مباشرة. وفي كل هذا حجة على الذين قرأوا التأريخ بنظرة حسن الظن بذلك الجيل إلى درجة أن أوصلوهم إلى حدود العصمة والحجة.

وفي تفسير القمي بسنده السابق قال الإمام (عليه السلام): (﴿**ولا يسألكم أموالكم، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا**﴾ أي يجدكم تبخلوا ﴿**ويخرج أضغانكم**﴾).

﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ

الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (٣٨)

بيان لصفات الضعف عندهم، وشاهد على كون ذلك المجتمع لم يكن هو المجتمع المطلوب لتحقيق أهداف الرسالة، وفي الآية الشريفة تهديد باستبدالهم، كما أنه تهديد باستبدال كل من يقعد عن نصرة الحق ويتخاذل عن نصرة أولياء الله.

وربما يستشعر منها التبشير بمؤمنين آخرين لا يكونون مثل ذلك الجيل المُعرض عن أهل البيت (عليهم السلام) إلا القليل منهم وهو مثل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (المائدة:٥٤).

وفي تفسير القمي بسنده السابق عن الإمام (عليه السلام): (﴿**تدعون لتنفقوا في سبيل الله**﴾ إلى قوله: ﴿**وإن تتولوا**﴾ عن ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ﴿**يستبدل قوماً غيركم**﴾ قال يدخلهم في هذا الأمر ﴿**ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ في معاداتكم وخلافكم وظلمكم لآل محمد (صلى الله عليه وآله)).

وعنه بسنده عن يعقوب بن قيس قال: (قال أبو عبد الله (عليه السلام): يا ابن قيس ﴿**وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ عنى أبناء الموالي المعتقين).

ومؤمنو الموالي وأبناؤهم والأمم الأخرى التي عرفت حق أهل البيت (عليهم السلام) بعد وصول الإسلام إليها: كلهم من مصاديق هذه الآية الكريمة، في قبال قرية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): مكة، التي أخرجته.

ومن مصاديق الآية مؤمني كل أمة وفي كل زمان جعلنا الله والقارئ العزيز منهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على أشرف المرسلين
محمد وآله الطيبين الطاهرين.

جدول محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَه.﴾(٢٥)	١٥٦
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ..﴾ (٢٦)	١٥٧
﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ..﴾(٢٧)	١٥٩
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ (٢٨)	١٦٠
﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ..﴾(٢٩)	١٦١
﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ..﴾ (٣٠)	١٦٢
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ..﴾ (٣١)	١٦٣
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً..﴾ (٣٢)	١٦٤
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣)	١٦٤
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ... فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤)	١٦٤
﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥)	١٦٥
﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ..وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾(٣٦-٣٧)	١٦٥
﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ..وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ..﴾ (٣٨)	١٦٦
جدول محتويات الكتاب	١٦٩